جامعة الأزهر
كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة
قسم الأديان والمذاهب

الرؤية الاستشراقية للحديث النبوي الشريف من خلال دائرة المعارف الإسلامية
عرض ونقد

إعداد
دكتور/ ناصر محمد السيد إسماعيل
الأستاذ المساعد بقسم الأديان والمذاهب

ملخص

جاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، على النحو التالي:

المقدمة، وتشتمل على أهمية الموضوع وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، وخطة البحث.

تمهيد، ويشتمل على التعريف بدائرة المعارف الإسلامية، وكاتب المقال في الدائرة المستشرق الإنجليزي "روبسون".

المبحث الأول: السنة بين الكتابة الفردية والتدوين الرسمي.

المبحث الثاني: الرؤية الاستشراقية لكون السنة مصدرا للتشريع.

المبحث الثالث: شبهة عدم اهتمام طائفة من الصحابة بالسنة.

وخلص الباحث إلى النتائج التالية:

١- أن الاستشراق المغرض ينطلق من سوء الظن، والذي يسوغ له تجاهل الحقائق، وافتراء الكذب، وتعمد التشويه.

٢- هناك فرق بين كتابة الحديث في زمن النبوة الشريف، والذي ثبت عن كثير من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وبين التدوين الرسمي الشامل الذي بدأ في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

٣- القرآن الكريم وطبيعة نصوصه، وفهم الصحابة، كلها تؤكد أن السنة هي المصدر الثاني للتشريع، وأن حجيتها ليس أمرا طارئا دعت إليه ضرورة اجتماعية.

٤- أسانيد الأحاديث وسيلة نقل طبيعية للنص الشريف، وليست اختلاقا.

٥- وظيفة السنة النبوية مع القرآن الكريم تفصيل مجمله، وتفسير مبهمه، وتقييد مطلقه، وتفسير مشكله، فضلا عن كونها تستقل بالتشريع، فهي وحي من الله.

٦- أقرب القول في أحاديث النهي عن الكتاب والإذن فيها أن النهي كان في حق من خيف اختلاط الأمر عليهم، بدلالة الإذن لغيرهم في نفس الآن.

تنوع التأليف والتصنيف في علوم الحديث من الجهود العظيمة في خدمة السنة النبوية وتقريبها للشيوخ والمريدين

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

لقد كان الاستشراق منذ ظهوره رافدا من روافد الفكر والثقافة الغربيين فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين وبلادهم، كما كان عاملا من عوامل تشويه صورة الإسلام والمسلمين في التصور الغربي وفي قنواتهم الثقافية والفكرية، بل وفي كتب الأطفال الدراسية[١]، مما كان لتلك الصورة آثارها السلبية على قبول غير المسلمين للإسلام، بل ونظرتهم له وللمسلمين، ومن ثم تعاملاتهم مع المسلمين في بلادهم وخارجها.

ولقد أمرنا الإسلام أن نواجه الفكر بالفكر، ونناقش أهل الكتاب بالتي هي أحسن، من خلال العقل والحجة والبرهان.

قال الله تعالى: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) [٢].

وقال تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)[٣].

وقال تعالى: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[٤].

وقال تعالى في أهل الكتاب: (لَيسُوا سَوَاءً) [٥]، **ويستنبط من هذه الآيات مسائل:**

١-الأمر بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وهذا يعني أنها مُحكمة ولم تُنسخ بآية السيف[٦]، كما هو رأي كثير من العلماء، "بل هي باقية محكمة لمن أراد منهم الاستبصار في الدين"[٧]، فهذا ما تقتضيه ضرورة الدعوة إلى الله تعالى

---

(١) انظر للزيادة: معوقات انتشار الدعوة الإسلامية بين الغربيين في العصر الحاضر وسبل علاجها، الدكتور محمد عبد المولى قاسم، رسالة ماجستير مقدمة لقسم الثقافة الإسلامية بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة، نوقشت سنة ٢٠٠٣م.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٦.

(٣) سورة النحل: ١٢٥.

(٤) سورة آل عمران: ٧٤، ٧٥.

(٥) سورة آل عمران: ١١٣.

(٦) قوله تعالى: (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) سورة التوبة: ٢٩.

(٧) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٦/٢٥٦، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ.

بالحكمة والموعظة الحسنة، والحاجة ماسة دائما لدعوة الخلق جميعا إلى دين الله تعالى، وإزالة اللبس والشبهات، كما أن الجهاد بالسيف لإزالة العقبات والعوائق بين الناس وبين دين الله تعالى شريعة قائمة، وأهل الكتاب بعد البلاغ وإقامة الحجة أحرار في قبوله أو عدمه، (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)[٨].

٢-الاستفادة من القواسم المشتركة بيننا وبين أهل الكتاب، والبناء عليها (وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) [٩]، وهذا "تعليم لمقدمة المجادلة بالتي هي أحسن ... وتأصيل طرق الإلزام في المناظرة، وهو أن يقال قد اتفقنا على كذا وكذا، فلْنَحْتَج على ما عدا ذلك، فإن ما أُمروا بقوله هنا مما اتفق عليه الفريقان؛ فينبغي أن يكون هو السبيل إلى الوفاق"[١٠].

٣-أهل الكتاب ليسوا نسيجا واحدا، والنص والواقع يؤكدان هذه الحقيقة، وفي عصرنا هذا من أهل الكتاب من يملك من القيم الفطرية والسواء الإنساني، ما يجعله يصدع بالحق، ويدافع عنه، بل أحيانا يموت في سبيله[١١].

في ضوء هذه المعطيات، فإن الحاجة ماسة دائما لتناول الدراسات الاستشراقية بالنظر والتحليل؛ لرد الشبهات، وبيان الحق وإقامته؛ دعوةً لدين الله تعالى، وإقامة للحجة على أولئك الذين قرؤوا عن الإسلام مما كتبه المستشرقون المغرضون، فوصلهم الإسلام مجتزءا منقوصا.

فكتابات المستشرقين تنطوي على سوء فهم يحتاج إلى تبصير، واجتزاء متعمد يحتاج إلى أمانة في النقل، وتلبيس يحتاج إلى بيان وإيضاح، كما أن الإنصاف يقتضي الإشارة إلى أن من أعمال المستشرقين، ما كان –وما يزال- رافدا أمينا للتعريف بالإسلام، بل منها ما يشتمل على دفاع عن الإسلام، وتصدٍ للهجمات الاستشراقية المغرضة.

---

(٨) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٩) سورة العنكبوت: ٤٦.

(١٠) التحرير والتنوير، محمد الطاهر عاشور ٧/٢١، دط، تونس: الدار التونسية، ١٩٨٤م.

(١١) ومن هؤلاء: نورمان فرانكستاين، وهو أمريكي يهودي أستاذ في العلوم السياسية، معروف عنه مساندته للقضية الفلسطينية، ومناهضة استخدام اليهود للمحرقة كوسيلة لجذب التعاطف الدولي، والتغطية على جرائم الصهيونية، علما بأن أباه قتل في معسكر (أوشفتين) النازي، وقتلت أمه في معسكر (ماجدونيفيك)، وأعدم النازيون معظم أفراد عائلته، من أهم مؤلفاته: كتاب (ما يفوق الوقاحة، إساءة استخدام اللاسامية وتشويه التاريخ). ومنهم أيضا البرلماني البريطاني اليهودي المخضرم من أصل بولندي جيرالد كوفمان، من عائلة ناجية من الهولوكوست، والذي بدأ مدافعا عن الدولة الصهيونية ثم تحول إلى دعم القضية الفلسطينية ومهاجمة الدولة الصهيونية. انظر:

https://ar.wikipedia.org/wiki/، وانظر أيضا: https://www.facebook.com/pg/DrArafatShoukri/photos/?tab=album&album_id=353090164746475.

وستكون هذه الدراسة من خلال عرض وتحليل وتفنيد شبهات المستشرق جيمس روبسون من خلال ما كتبه عن الحديث في دائرة المعارف الإسلامية في إصدارها الأول.

أسباب اختيار الموضوع:

من أسباب اختيار الموضوع:

١-إن كتابات المستشرقين هي الرافد الأساس للمناهج الدراسية، ولوسائل الإعلام على اختلافها في الغرب.

٢- لما تزل الكتابات الاستشراقية تشكل الوعي واللاوعي في الغرب عن الإسلام والمسلمين، وما الصورة المغلوطة عن الإسلام والمسلمين -والتي تؤثر سلبا على رؤية الغرب وتعاطيه لقضايا الإسلام والمسلمين في المحافل الدولية- إلا نتيجة لهذا الطرح المغرض الذي لم يرع في العلم والموضوعية إلا ولا ذمة.

٣- السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع، وهي صنو القرآن الكريم، وكل هجوم عليها؛ فهو هجوم على الإسلام في الصميم، وكل دفاع عنها فإنه من فروض الكفايات التي ينبغي أن لا تغيب عن جهود الباحثين.

٤- كل جهد يُبذل لرد الشبهات، وتعرية التناول المغرض، والتشويه المتعمد، هو دفاع عن دين الله تعالى، ونصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإقامة لما ينبغي أن تكون عليه الإنسانية الرشيدة من الإنصاف، وقول الحق ولو على النفس والأقربين، وفي هذا الصدد تأتي هذه الدراسة في هذا الصدد؛ تجلية لشبهات المستشرقين حول سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وردا لهذه الشبهات بالمنهج العلمي الصحيح.

الدراسات السابقة:

هذه الدراسة تحتشد مع كتابات كثيرة في الذب عن السنة النبوية المطهرة، وذلك من خلال تعقب الكتابات الاستشراقية المغرضة حول السنة النبوية، وتتميز هذه الدراسة بأنها مبنية على الترجمة المباشرة، ومن ثم التعقب للنص الأصلي في دائرة المعارف الإسلامية.

منهج البحث:

المنهج التاريخي:

المنهج (التأريخي، هو الذي يقوم باسترداد الماضي، تبعاً لما تركه من آثار، أياً كان نوع هذه الآثار، وهو المنهج المستخدم في العلوم التأريخية والأخلاقية)[١٢]، وذلك من خلال استرداد الروايات والأخبار وتحليلها.

المنهج الوصفي:

وهو أسلوب بحث علمي يعني "استقصاء ينصب على ظاهرة من الظواهر كما هي قائمة في الحاضر، بقصد تشخيصها، وكشف جوانبها، وتحديد العلاقات بين عناصرها أو بينها وبين ظواهر أخرى، وهو لا يقف عند حدود

(١٢) مناهج البحث العلمى، د. عبد الرحمن بدوى – ص٦٨ – ١٩٦٣م – دار النهضة العربية – مصر.

وصف الظاهرة، وإنما يذهب إلى أبعد من ذلك فيحلل ويفسر ويقارن ويقيم بقصد الوصول إلى تقييمات ذات معنى بقصد التبصر بتلك الظاهرة"[١٣].

المنهج الاستنباطي:

وهذا المنهج يتضمن المنهج الوصفي التشخيصي، أي حصر الحقائق العامة، وتصنيفها، وترتيبها، ثم الاستنباط من ذلك"[١٤]، فيدخل في هذا استنباط الحجج والاستدلالات العقلية من النصوص والروايات والأخبار.

خطة البحث:

جاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، على النحو التالي:

المقدمة، وتشتمل على أهمية الموضوع وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، وخطة البحث.

تمهيد، ويشتمل على التعريف بدائرة المعارف الإسلامية، وكاتب المقال في الدائرة المستشرق الإنجليزي "جيمس روبسون".

المبحث الأول: السنة بين الكتابة الفردية والتدوين الرسمي، وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: كتابة الحديث النبوي.**
- **المطلب الثاني: إشكالية أحاديث الأمر بالكتابة والنهي عنها:**
- **المطلب الثالث: مناهج التصنيف في مدونات الحديث.**

المبحث الثاني:الرؤية الاستشراقية لكون السنة مصدرا للتشريع، ويشتمل على مطلبين:

- **المطلب الأول: شبهة أن مصدرية السنة للتشريع أمرٌ عارض.**
- **المطلب الثاني: خداع المصطلحات من مناهج الاستشراق المغرض.**

المبحث الثالث: شبهة عدم اهتمام طائفة من الصحابة بالسنة:

- **المطلب الأول: الزعم بوجود طائفة من الصحابة غير مهتمة بالحديث**
- **المطلب الثاني: شبهة وضع الأسانيد للأحاديث.**

الخاتمة، وفيها أهم النتائج والتوصيات وأهم المراجع، وفهرس الموضوعات.

فاللهم خذ بأيدينا إليك أخذ الكرام عليك، وأجرنا من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، وتقبل منا إنك أنت السميع العليم.

---

(١٣) مقدمة في منهج البحث العلمي، د. رحيم العزاوي ص٩٧، ط١، الأردن: دار دجلة، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

(١٤) قواعد أساسية في البحث العلمي، سعيد إسماعيل صيني، ص٧١ بتصرف.

التمهيد:

أولاً: التعريف بدائرة المعارف الإسلامية:

جاء على غلاف دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية في طبعتها الجديدة بالإنجليزية: أُعدت بواسطة عدد من رواد المستشرقين، حررها هيئة تحرير مكونة من "هـ.ا. ر. جب"(١٥)، و "ج.هـ.كرامرز"(١٦)، و"ليفي بروفنسال"(١٧)، و"ج. شاخت"(١٨)، يساعدهم: "س.م. شترن"(١٩)، كسكرتير عام،

---

(١٥) مستشرق إنجليزي ولد فى الإسكندرية بمصر سنة ١٨٩٥م وتوفى فى أكتوبر ١٩٧١م بأكسفورد، كان أبوه ناظر زراعة فى شركة أبو قير لاستصلاح الأراضى، درس اللغات السامية العربية والعبرية والآرامية، رأس كرسى اللغة العربية فى جامعة لندن وكان مدير الدراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفاد بأمريكا، من آثاره: فتوح العرب فى آسيا الوسطى ١٩٢٣م، والأدب العربى ١٩٢٦م. د.عبد الرحمن بدوى، موسوعة المستشرقين صـ١٧٤.

(١٦) كرامرز, ج.ك ١٨٩١ – ١٩٥١م، عمل مترجماً للسفارة الهولندية فى سفارة الآستانة عين أستاذ للتركية والفارسية فى جامعة ليدن، ثم أستاذ للعربية بها ١٩٢٩م، من آثاره: فن التاريخ عند الأتراك العثمانيين ١٩٢٣م، والأسماء الإسلامية المركبة من كلمة دين ١٩٢٧م، وحق الإسلام والتشريع الإسلامى، والقرآن مترجم عن العربية (بروكسل ١٩٥٦م). العقيقى، المستشرقون ٣٢١/٢.

(١٧) مستشرق فرنسى ١٨٩٤ – ١٩٥٦م ولد فى الجزائر وحصل على كلية الآداب منها ١٩١٣م، عمل أستاذ لتاريخ العرب والحضارة الإسلامية سنة ١٩٢٨م بكلية الآداب بالجزائر، دعته جامعة القاهرة سنة ١٩٣٨م أستاذ زائراً وعينته فى اللجنة المكلفة بتحقيق كتاب الذخيرة لابن بسام، ومن آثاره: التكملة لتاريخ قلعة بنى عباس ١٩١٣م، وأخبار أولياء المغرب ١٩٢٠م، وله الإحصاء المغربى لصحيح البخاري ١٩٢٣م، وله مئات التصانيف الأخرى المتعلقة بالإسلام وحضارته، المستشرقون، نجيب العقيقي ٢٩٣/١ وما بعدها.

(١٨) ولد جوزيف شاخت فى ١٩٠٢/٣/١٥م التحق بالثانوية الألمانية، وفيها اكتسب اهتمامه الأول باللغات الشرقية، درس فقه اللغة اللاتينى الإغريقى وعلم اللاهوت واللغات الشرقية بجامعتى "برسلاو" و "لايبزيج"، عين أستاذا فى جامعة فرايبورج ١٩٢٧م، وفى جامعة كونسبرج ١٩٣٢م، وفى الجامعة المصرية ١٩٣٤م، ومحاضرا للدراسات الإسلامية فى جامعة أكسفورد ١٩٤٨م، وأستاذا للأحداث العلمية فى جامعة الجزائر ١٩٥٢م، وأستاذا فى جامعة ليدن ١٩٥٤م، وأستاذا فى كولومبيا ١٩٥٧م: ١٩٥٨م. وانتخب عضوا فى المجمع العربى بدمشق وتولى مجلة الدراسات الإسلامية، وقد اشتهر بدراسة التشريع الإسلامى وبيان نشأته وتطوره وتأثره وأثره) انظر: برنار لويس – جوزيف شاخت صـ٦٢٢، ويوسف شاخت وآثاره بقلم روبير بوشنفيج صـ٦٣٠ – نقلا عن مجلة الدعوة الإسلامية بليبيا. والمستشرقون، نجيب العقيقى، ٤٦٩/٢.

(١٩) Stern.s.m مستشرق إنجليزي عمل أستاذا للدراسات الشرقية في جامعة أكسفورد، من آثاره: تاريخ القرامطة، وتاريخ المذاهب والفرق الإسلامية، وتاريخ الأدب العربي،اليهودي في القرون الوسطى. المستشرقون، نجيب العقيقي ٥٦٢/٢.

و"ب. لويس"[٢٠]، و"ش.بيلا"[٢١]، و"ج. شاخت"، يساعدهم "س. دومونت"، و"ر. م. سافوري"[٢٢]، كسكرتارية تحرير، تحت رعاية (الاتحاد الدولي للأكاديميات)[٢٣]، [٢٤].

كتب هذه الدائرة حوالي ٤٨٦ مستشرقا، حرروا حوالي ٣٩٣٠ مادة[٢٥]، وكانت تتويجا لدراسات وبحوث ومؤتمرات قام بها المستشرقون، فأرادوا أن يجمعوا شتات تلك المعارف باللغات الثلاث (الألمانية والفرنسية والإنجليزية فدعوا إليها سنة "١٨٩٥م" وكلفوا هوتسما[٢٦]من جامعة أو تراخت بإنشائها، ومطبعة "ليدن" بإصدارها، واستعين بالمجامع ومؤسسات نشر العلم فى أوربا قاطبة للإنفاق عليها فأمدتها بالمال١٨٩١م.

---

(٢٠) ولد سنة ١٩١٦م، تخرج من جامعتي لندن وباريس، وعُين معيدا في جامعة لندن ١٩٣٨م، والتحق بوزارة الخارجية ١٩٤١: ١٩٥٤م، عمل أستاذا لتاريخ الشرقين الأدنى والأوسط في جامعة لندن ١٩٤٩م، وأستاذ للتاريخ في جامعة كاليفورنيا ١٩٥٥: ١٩٥٦م. من آثاره: أصول الإسماعيليين والإسماعيلية، وتاريخ اهتمام الإنجليز باللغة العربية. المستشرقون، نجيب العقيقي ٥٦١/٢.

(٢١) مستشرق فرنسي ولد سنة ١٩١٤م، من أساتذة مدرسة اللغات الشرقية، وأستاذ اللغة والحضارة العربية في جامعة باريس ١٩٥٦م، وأستاذ العربية في السوربون، وأمين لجنة أرابيكا، من آثاره: اصطناع البربر اللهجة العربية في شمالي أفريقيا، ونمرود وإبراهيم في اللغة العربية، والجاحظ في بغداد وفي سامراء، وعاون "شاخت" و"برنارد لويس" في نشر الطبعة الجديدة من المعجم المفهرس لألفاظ الحديث. المستشرقون، نجيب العقيقي ٣٢٦/١.

(٢٢) سافوري R.M.Safory، مستشرق كندي، ولد سنة ١٩٢٥م في إنجلترا، وتعلم بها وحصل على الدكتوراه في الدراسات الشرقية، وتحديدا في الدراسات الفارسية، كان أمين الطبعة الإنجليزية من دائرة المعارف الإسلامية (١٩٦٠،١٩٥٦م)، اهتم بدراسات فارس وتاريخ الدولة الصفوية. المستشرقون، نجيب العقيقي ١٥٣/٢، ١٥٤.

(٢٣)الاتحاد الدولي للأكاديميات منظمة من أكثر من مائة أكاديمية تنتمي لأكثر من ستين دولة، تأسس سنة ١٩١٩م بباريس، ويعمل الاتحاد على تحسين المعرفة، وتطوير التبادل العلمي... وتشجع التعاون بين الأكاديميات القومية، التي يتعلق نشاطها الرئيس بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، وحماية وتحفيز هذه العلوم، والدعم الثابت لكل أكاديمية قومية وأعضائها" انظر: iua.org/en/uai/introduction،http://www.uai

(٢٤) يُراجع غلاف المجلد الأول من دائرة المعارف الإنجليزية في أصلها الإنجليزي.

(٢٥) انظر: مفتريات وأخطاء دائرة المعارف الإسلامية (الاستشراقية) د.خالد القاسم ٨٤/١ وما بعدها، ط١، الرياض: دار الصميعي، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

(٢٦) هوتسما، م:ث ١٨٥١،١٩٤٣م Houtsma تخرج باللغات العربية والفارسية والتركية من جامعة أوتراخت بألمانيا، انتخب عضواً بالمجمع العلمى العربى بدمشق، ومن آثاره: العقيدة الإسلامية والأشعرى (ليدن ١٨٧٥م). نجيب العقيقى – المستشرقون جـ٢ صـ٣١٥ بتصرف – ط٤ – دار المعارف مصر.

وأشرف "هوتسما" على تحرير الدراسات المتعلقة بالإمبراطورية العثمانية وفارس وآسيا الوسطى والهند الهولندية، ثم حل محله فى الإشراف على دائرة المعارف "فنسنك[٢٧]" عام ١٩٢٤م، وتولى تحرير النسخة الألمانية: "شاده"[٢٨] و"رتشار هارتمان"[٢٩] وبوبير[٣٠] و"هجنج"، وأشرف على تحرير النسخة الفرنسية "رينه باسه"[٣١] عميد كلية الآداب فى الجزائر، فأشرف على جميع الأبحاث المتعلقة بشمالى أفريقيا (الجزائر وتونس والمغرب والسودان)، ثم خلفه ابنه "هنرى باسه[٣٢]". وأشرف على تحرير النسخة الإنجليزية" أرنولد[٣٣] فأشرف على جميع الدراسات المتعلقة بالبلاد المتصلة ببريطانيا ما عدا مصر... وأصيب نشاط لجنة دائرة المعارف الإسلامية بعد الحرب بشىء من الاضطراب، وقضى على بعض أعضائها فى ساحاتها، ثم استأنفت من بعد نشاطها، فباشرت لجنة منها بإشراف "كرامرز"، و"جب" و"ليفى بروفنسال" بنشر طبعة جديدة منقحة (١٩٥٤م)...

وقد وقعت الطبعة الأولى فى أربعة مجلدات ضخمة وذيل: الأول A-D في ١١١٩ صفحة.

---

(٢٧) فنسنك أو ونسنك. أ.ج، مستشرق هولندى، ستأتى الإشارة إليه باعتباره أحد محررى مواد العبادة فى دائرة المعارف الإسلامية.

(٢٨) شاده، ١٨٨٣١م،١٩٥٢م، مستشرق ألمانى تخرج باللغات الشرقية، وعين أستاذاً فى هامبورج وفى الجامعة المصرية، ثم مديراً لدار الكتب بالقاهرة. من آثاره: ترجم كتاب التنبيه فى فقه الشافعية بعنوان الشريعة الإسلامية ليدن ١٩١٠م، وله كتاب عن سيبويه ١٩١١م، والعربية واللغات السامية ١٩٢٧م، وأبو نواس وألف ليلة وليلة: العقيقى — المستشرقون جـ٢ صـ٤٤٨، ٤٤٩ بتصرف.

(٢٩) هارتمان، رتشار (١٨٨١،١٩٦٥م) تخرج من جامعتى توبنجين وبرلين، انتخب عضواً فى مجامع كثيرة منها المجمع العلمى العربى بدمشق، وله آثار كثيرة منها: الوهابيون ١٩٢٤م، مصر الحديث ١٩٢٧م والتصوف الإسلام ١٩١٥، ١٩١٦م. نجيب العقيقى المستشرقون جـ٢ صـ٤٤٥، ٤٤٦.

(٣٠) بوبير، سالمون مستشرق ألمانى من آثاره نشر رسالتين فيما وراء الطبيعة للبهلواني متنا وترجمة ألمانية. المستشرقون — العقيقى جـ٢ صـ٣٦٠.

(٣١) باسه، رينه ١٨٥٥، ١٩٢٤م فرنسى من آثاره: صلوات المسلمين فى الصين (باريس ١٨٧٨م والشعر العربى قبل الإسلام ١٨٨٠م، وقد عمل قنصلاً لفرنسا فى الجزائر، كما عمل عميداً لمدرسة الجزائر حينما تحولت إلى كلية، وآثاره وافرة عن الإسلام والمسلمين. العقيقى المستشرقون جـ١ صـ٢١٦.

(٣٢) باسه، هنرى مستشرق فرنسى (١٨٩٣ — ١٩٢٦م) تخصص بدرس المسلمين تاريخاً وأدباً قبائل البربر ١٩٢٠م. المستشرقون جـ١ صـ٢٨٩.

(٣٣) مستشرق إنجليزى ولد " دفنبورت" بانجلترا سنة ١٨٦٤م، درس في لندن وجامعة كمبردج، درس الفلسفة بكلية عليكرة الإسلامية بالهند من آثاره الدعوة إلى الإسلام، وشغل كرسى الدراسات الإسلامية واللغة العربية فى جامعة لندن ١٩١٧م. د/ عبد الرحمن بدوى — موسوعة المستشرقين صـ٩، ١٠ بتصرف — ط٣ — ١٩٩٣م — دار العلم للملايين — بيروت، لبنان.

والثاني: D-K في ١٢٤٣ صفحة. والثالث: L-R في ١٢٧٢صفحة. والرابع: S-Zفي ١٣١٤صفحة، وذيل فى ٢٨٦ صفحة ليدن ١٩١٣-١٩٣١م " ثم تلتها من الطبعة الجديدة المنقحة فى عدة أجزاء، ليدن ١٩٣٦ – ١٩٧٧م، وكانت مؤسسة "روكفلر"[٣٤] قد منحتها مبلغ ٤٥ ألف دولار لاستكمالها ١٩٦٢م) [٣٥].

دائرة المعارف الإسلامية في الميزان:

لقد أثنى البعض على جهود دائرة المعارف الإسلامية في التعريف بالإسلام وتاريخه وحضارته وبالمسلمين، وبعد النظر والتحقيق، فإن الباحث يرى أن من أثنى ومدح عمل الدائرة إما أن يكون مستشرقا أو في حكم المستشرق من القادحين في دين الإسلام، المنتقصين له، الذين ينظرون إليه كفكر بشري، وإما أن يكون شخصا مدحها قبل أن يطلع اطلاعا بصيرا على ما فيها.

أما الأول، فمثاله الأستاذ نجيب العقيقي، حيث قال: "وقد تحققت الغاية من دائرة المعارف الإسلامية... من إحاطة الناس حق الإحاطة بأحوال ملايين المسلمين، واطلاعهم على تاريخهم وجغرافيتهم، ودينهم وعلومهم، وآدابهم وفنونهم، وتراجم المشهورين من رجالهم، بطريقة علمية خالصة، فجاءت أمتع كتاب عنهم في الغرب، وأقرب إلى الحقائق والتمحيص والاستنباط والإحاطة في كل ما ألفه الغربيون في هذا الشأن"[٣٦].

ولا غرابة في وجهة نظر العقيقي، وقد عد نفسه من المستشرقين الرهبان التابعين للمدرسة المارونية اللبنانية.

ومثال الثاني الإطراء الذي سطره مترجمو الدائرة حيث رأوا أنها (تمتاز بصفات لم تتوافر فيما كتب من قبل، لأنها ليست مجهود فرد واحد، وإنما هي ثمرة جهود أعلام المستشرقين، كتب كل منهم فيما تخصص

---

(٣٤) يطلق هذا الاسم على روكفلر الأب وروكفلر الابن، هما:١، جون روكفلر ١٨٣٩،١٩٣٧م رجل مال وأعمال أميركى سيطر على صناعة تكرير النفط فى الولايات المتحدة الأمريكية يعرف بـ جون روكفلر الأب.

٢، جون روكفلر ١٨٧٤،١٩٦٠م أحد ملوك النفط فى الولايات المتحدة الأمريكية يعرف بـ جون روكفلر الابن. منير البعلبكى، قاموس المورد ص٧٥، ط١٧، ١٩٨٣م، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

(٣٥) نجيب العقيقى، المستشرقون، ٢٧٠/٣: ٢٧٢ بتصرف.

(٣٦) المستشرقون، نجيب العقيقي ٢٧٢/٣.

فيه، من علم وفن، حتى صارت فصولهم نماذج في العمق والبحث والتحقيق، كذلك تمتاز هذه الدائرة بذكر المراجع عقب كل بحث استكمالاً للمنهج العلمي الصحيح، أضف إلى ذلك أنهم قصروا أبحاثهم على ناحية واحدة من المعرفة الإنسانية، هي تراث الإسلام، وما يتصل به، ولهذا أطلقوا عليها " دائرة المعارف الإسلامية"، وليست فائدة هذه الدائرة مقصورة على الناحية الثقافية وحدها ولكنها مفيدة في بعث الحضارة الإسلامية، مفيدة في تكوين الرأى العام الإسلامي، وتدعيم تقاليده والكشف عن مثله العليا، وذلك لأن مهمة دائرة المعارف- فيما نعتقد- أكبر من مهمة الجامعة فى تكوين الرأى العام، لما فيها من الشمول مع العمق، والتحقيق مع الترتيب، على سهولة في الأسلوب واللغة التى تجعلها وقفاً على الخواص وأشباه الخواص)[٣٧].

ولما تكشّف لهم من خلال الترجمة ما تضمنته هذه الدائرة من اجتزاء في عرض قضايا الإسلام الكبرى، وتشويه متعمد لحقائق الإسلام، تراجعوا عن هذا الثناء والمدح المفرط، حيث جاء في مقدمة الطبعة الثانية من الترجمة سنة ١٩٦٩م (لم تقتصر الترجمة على مواد الدائرة فحسب بل تجاوزت ذلك إلى التعليق على كثير من موادها، بالتصحيح أو التكملة، أو رد هوى، أو درء مطعن، وتولى ذلك أئمة الكتب والعلماء العرب، حتى أصبحت النسخة العربية من عدة وجوه أكمل من الأصل) [٣٨].

والحق الذي لا يخفى على من يطلع على مواد هذه الدائرة، أنها وضعت باللغات الأوروبية "في دوائر الاستعمار والاستشراق والتبشير، بهدف أساس هو أن تكون مادة في أيدي الخبراء والمبعوثين الذين ترسلهم دوائر وزارات الاستعمار إلى عالم الإسلام والعروبة، ولذلك فهي تنضح بالحقد والتعصب والشكوك والاضطراب... ولقد لفت الباحثون المنصفون النظر إلى أخطاء دائرة المعارف عندما أراد أن يترجمها نفر من الكتاب في ثلاثينيات القرن العشرين، فقد تصدى لهم — لمترجمي الدائرة، أكثر من باحث منصف يعارض خطتهم، ويطالبهم بتصحيح تلك الأخطاء في صلب البحث، ولكنهم اكتفوا بالتعليق على هذه الشبهات في الهوامش، ففوتوا كثيراً من الحقائق على القارئ المتعجل الذي لا يعني بالرجوع إلى الهامش، وقد أشار العلامة فريد وجدي إلى ظاهرة خطيرة في هذه الموسوعة، وهي: سيطرة

---

(٣٧) دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشنتاوى، إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، ٤/١ ط١،، بيروت: دار المعرفة ١٩٣٣م.

(٣٨) المصدر السابق ٧/١، ط٢، القاهرة: دار الشعب، ١٩٦٩م.

البدع الدخيلة في الدين الإسلامي... حتى ليظن الباحث أنهم من أصول الإسلام، وقد أمعن مؤلفو الدائرة في تسجيلها وشرحها كأنها حقائق مقررة) [٣٩].

ويصدق كلام العلامة وجدي في تقديسهم لكل ما هو مدنّس، ومحاولة تدنيسهم لكل ما هو مقدس عندنا ما يلي:

فلقد اعتبر (المستشرق " لويس بروان" في كتابه " طوالع الإسلام إلى حركات التجديد والإصلاح " البهائية والقاديانية حركتين إصلاحيتين في الإسلام)[٤٠].

في حين يقول " جولد زيهر" عن الحركة الوهابية: (تنكر الصفة الشرعية لما أحرزه المسلمون من تقاليد وسنن، خلال تطورهم التاريخي، ولا تريد أن تعترف بالإسلام، إلا على هيئة حفرية متحجرة، من حفريات القرن السابع الميلادي) [٤١].

ويقول عن الميرزا على الشيرازي (الشاب الورع ميرزا على محمد الشيرازي الذي ولد سنة ١٨٢٠م، وقد شهد له أصحابه بسبب مواهبه الفائقة، وحماسته المتقدة، بأن العناية الإلهية قد اصطفته لغاية سامية... ولم يدخر وسعاً في أن يرفع الوحي المحمدي درجة نحو النضج والكمال... ويقول عن "قرة العين"[٤٢] – وهي امرأة مشبوهة من نساء البابية: ومنهم البطلة قرة العين الجديرة بالشفقة والرحمة)[٤٣].

---

(٣٩) سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، أنور الجندي ١٧، ١٨، د ط، القاهرة: مكتبة التراث الإسلامية، دت.

(٤٠) أخطاء المنهج العربي الوافد، أنور الجندي ص٤٢٢ بتصرف، ط١، بيروت: دا رالكتاب اللبناني، ١٩٧٤م.

(٤١) العقيدة والشريعة، جولد زيهر، ترجمة محمد يونس موسى وآخرون ص٥٤، ٥٥، دط، القاهرة: دار الكتاب المصري، دت.

(٤٢) قرة العين: لقبها بهذا اللقب أستاذها كاظم الرشتي ولقبها بـ " روح الفؤاد" وهي فاطمة وكنيتها أم سلمي بنت الحاج ملا صالح القزوييني العالم المشهور، تزوجت بابن عمها الملا محمد بن الملا تقي إمام الجمعة في قزوين فأولدها ولدين وبنتا، انتهرها أبوها عن قراءة كتب أحمد الأحسائي، ولكنها هربت إلى كربلاء، حيث اجتمعت بتلاميذ كاظم الرشتي، وهي التي أعلنت في مؤتمر بدابشت ١٢٦١هـ ١٨٤٨م نسخ الشريعة الإسلامية واستخدمت في التأثير على الآخرين أنوثتها العارمة وجمالها، ودعت إلى السفور والفجور واستعلنت بذلك، وهاجمت نظام الأسرة في الإسلام وتعدد الزوجات والطلاق، ودعت نساء إيران إلى التبرج والسفور، ولما شاع عنها من الفاحشة والهيام طعنها عمها وزوجها في شرفها علانية فأوزعت إلى أحد أتباعها فقتل عمها وهو يصلى الصبح، وألقى القبض عليها بهذه التهمة ولكنها فرت هاربة بمساعدة لميرزا حسين البهاء، ولدت سنة ١٢٣١هـ وهلكت ١٢٦٤هـ = ١٨١٧م – ١٨٤١م. حقيقة البابية والبهائية، محسن عبد الحميد ص١٠٩، ١١١، ط٣، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ،١٩٨٥م.

(٤٣) العقيدة والشريعة، جولد زيهر ص٢٤١: ٢٤٣ بتصرف.

ولنقارن بين ما سبق وبين ما كتبه عن "أبي هريرة ﷺ - في دائرة المعارف الإسلامية يقول: (وقد اختلق الناس قصة، تبرر اعتقادهم بعصمة ذاكرته عن الوقوع في الخطأ.. فقالوا: إن النبي ﷺ لفه بيده في بردة، بسطت بينهما أثناء حديثهما، وبذلك ضمن أبو هريرة لنفسه ذاكرة تحفظ كل ما سمع.. وتظهرنا طريقة روايته للأحاديث، التي ضمنها أتفه الأشياء بأسلوب مؤثر – على ما أمتاز به من روح المزاح، الأمر الذي كان سبباً في ظهور كثير من القصص... كل هذه الظروف، تجعلنا نقف من أحاديث أبي هريرة موقف الحذر والشك وقد وصفه "شبرنجر"(٤٤) " بأنه المتطرف ورعا، ويجب أن نلحظ أيضاً أن كثيراً من الأحاديث التي تنسبها الروايات إليه، وإنما قد نحلت عليه في عصر متأخر)(٤٥).

والمستشرق الدينامركي"فون بوهل"(٤٦)، هو كاتب مادة أبي بكر ﷺ، وعند حديثه عن حادث الإفك، وأثرها على الصداقة بين رسول الله ﷺ وأبي بكر قال: (ومن المحتمل أن هذه الصداقة ما كانت لتفصمها تلك الفضيحة، التي أثارتها هذه المرأة الصغيرة الطائشة، حتى ولو لم يختمها القرآن بهذه الخاتمة الموفقة)(٤٧).

نعم، إن من واجبنا أن نشكر الجهود الموضوعية، والدراسات العلمية، الهادفة إلى الوصول إلى الحق، ولكنها قليلة جدا في هذه الدائرة، والغالب عليها، أخطاء تحتاج إلى تصحيح، ونقص يستلزم إكمالا، وأهواء تتطلب دعوة إلى التجرد والموضوعية، وفيها مطاعن لابد من دفع لأذاها وأضرارها.

وقد انبرى للرد على هذه الدائرة كثيرٌ من الباحثين في عشرات الرسائل العلمية والأبحاث، للقيام بواجب الدفاع عن دين الله تعالى.

فأسأل الله العظيم أن يضرب لي بسهم في صفوف المدافعين عن دينه وكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وعن عباد الله الصالحين، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم.

---

(٤٤) مستشرق نمساوي تجنس بالجنسية الإنجليزية اشتهر بكتاباته عن حياة النبي ﷺ ولد في النمسا ١٨١٣م درس الطب واللغات الشرقية، عين عميداً للكلية الإسلامية في دلهي، من آثاره: اصطلاحات الصوفية، تاريخ محمود الغزنوى ١٨٤٧م، توفي سنة ١٨٩٣م. موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي صـ٢٨.

(٤٥) دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الأولي صـ٤١٨ بتصرف.

(٤٦) بوهل، ف، مستشرق دانمركي، ولد في كوبنهاجن ١٩٣٢،١٨٥٠م، نال درجة الدكتوراه عن دراسته عن النحو العربي وتاريخ اللغة سنة ١٨٧٨م، من آثاره حياة محمد وله كتابات عن الأمويين والخوارج والقرآن. المستشرقون ٥٢٢/٢، ٥٢٣ بتصرف.

(٤٧) دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة الطبعة الأولي جـ١ صـ٣١٢، ٣١٣.

ثانياً:ترجمة المستشرق جيمس روبسون:

هو المستشرق الإنجليزي روبسون، جيمس، ولد سنة ١٨٩٠م، تخرج من جامعة جلاسجو باللغات الشرقية، وحصل على الماجستير والدكتوراه في الأدب، ثم الدكتوراه من جامعة القديس "أندروز" مع مرتبة الشرف، والماجستير مع مرتبة الشرف من جامعة مانشستر، عين جيمس روبسون أستاذ مساعدا للغة العبرية في جامعة جلاسجو (١٩١٥: ١٩١٦م)، وتنقل بين العراق والهند (١٩١٦: ١٩١٨م)، واختير معيدا للإنجليزية في لاهور (١٩١٨: ١٩١٩م)، ثم قصد عدن (١٩١٩: ١٩٢٦م)، وعُيّن مشرفا على أموال الكنيسة المتحدة في شاندون (١٩٢٦: ١٩٢٨م)، ومعيدا للعربية في جلاسجو (١٩٢٨: ١٩٤٨م)، ثم محاضرا (١٩٤٩م)، وأستاذا للعربية في جامعة مانشستر (١٩٤٩م).

له آثار كثيرة جدا، بيد أنه معروف باهتمامه بالكتابة في الحديث النبوي الشريف، وله مقالات مهمة مثل " Muslim tradition: the question of authenticity"، أو" الحديث النبوي، ومسألة الأصالة"، وله "The Isnad in Muslim tradition" أو الإسناد في الحديث الإسلامي "وهو ما تتضمنه أيضا تقديمه لكتاب المدخل إلى كتاب الإكليل" للحاكم النيسابوري، وحررها بعنوان: An Introduction to the Science of Tradition، أو (المدخل إلى علوم الحديث)، وطبعتها الجمعية الأسيوية الملكية ببريطانيا وأيرلندا سنة ١٩٥٣م، وفيما يلي ترجمة له:ومن أهمها فيما يخص الحديث: المدخل إلى علم الحديث للنيسابوري (١٩٥٣م)، ومشكاة المصابيح لمحمد أشرف، ترجمة إنجليزية (لاهور ١٩٦٣: ١٩٦٥م)... والإسناد في الحديث عند المسلمين (١٩٥٣: ١٩٥٤م)... وموارد الحديث (١٩٥١م)، والحديث ترتيب وفهرسة (١٩٥١م)، والأساس الثاني للإسلام: الحديث (١٩٥١م)...والغزالي والسنة (١٩٥٥م)، وصحيح مسلم (١٩٤٩م)... وابن إسحاق والإسناد (١٩٥٥: ١٩٥٦م)، وفي نشرة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية: سنن أبي داود (١٩٥٢م، وجامع الترمذي، (١٩٥٤م)... والحديث (الجمعية الشرقية بجامعة جلاسجو ١٩١٦م، ١٩٥٥م، ١٩٥٦م، ١٩٦٧م، ١٩٧٨م... [٤٨].

والذي نحن بصدد دراسته الآن ما نشر في دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها الجديدة سنة ١٩٨٦م، حول الحديث النبوي الشريف.

(٤٨) العقيقي، نجيب، المستشرقون ٢/١٢٤، ١٢٥، ط٥، دار المعارف، القاهرة، مصر، ٢٠٠٦م.

تأثر روبسون بمن سبقه من المستشرقين:

كان روبسون يعتقد بصناعة الأحاديث والأسانيد واختلاقها، وأنه لم يظهر كتاب حقيقي في تدوين السنة قبل عام ١٢٠هـ"[(٤٩)].

وهو في مقاله هذا ينسج على منوال المستشرقين الذين شنوا الحملة على السنة النبوية، من أمثال جوزيف شاخت[(٥٠)] وجولد زيهر[(٥١)]، ومارجليوث[(٥٢)]. وغيرهم.

فقد كان "شاخت"، يرى تأثر السنة وصاحبها ﷺ والإسلام عموما بمصادر داخلية وهي التقاليد والأعراف الجاهلية، وخارجية، ويقصد بها تعاليم اليهودية والنصرانية وغيرها من الأديان، ويقول: إن النظرية الكلاسيكية للفقه الإسلامي تعرف السنة بأفعال النبي المثالية، وفي هذا المفهوم يستعمل الشافعي[(٥٣)] كلمة السنة، وعنده أن السنة، أو سنة النبي، كلمتان مترادفتان، لكن معنى السنة – على وجه الدقة– إنما هو النظائر السابقة ومنهج للحياة"، ثم يدعم "شاخت" رأيه عن السنة بآراء أساتذته من المستشرقين، فيذكر رأي المستشرق "جولد زيهر، فيقول: ولقد وضح "جولد زيهر،

---

(٤٩) يُنظر الشيخ حيدر حب الله، http://hobbollah.com/articles/

(٥٠) جوزيف شاخت، مستشرق ألماني مولود عام ١٩٠٢م، Schacht,J، تخرج من جامعتي برسلاو وليبزيج، وعين أستاذا في جامعة فرايبورج (١٩٢٧م)، وفي جامعة كونسبرج (١٩٣٢م)، وفي الجامعة المصرية (١٩٣٤م)، ومحاضرا للدراسات الإسلامية في جامعة أكسفورد (١٩٤٨م)، وأستاذا للأحداث العلمية في جامعة الجزائر (١٩٥٢م)، وانتخب عضوا في المجمع العلمي العربي في دمشق، اشتهر بدراسة التشريع الإسلامي وبيان نشأته وتطوره وتأثره وأثره، من آثاره نشر كتاب الحيل والمخارج للخصاف بمقدمة وحواشي (١٩٢٣م)، وكتاب الحيل في الفقه للقزويني متنا وترجمة ألمانية بمقدمة وتعاليق (١٩٢٤م) وغير ذلك كثير. المستشرقون للعقيقي ٨٠٣/٢.

(٥١) أو جولد زيهر، ولد في الثاني والعشرين من شهر يونيو سنة ١٨٥٠م بهنغاريا، وأسرته أسرة يهودية ذات مكانة وقدر كبير. المستشرقون لنجيب العقيقي ٩٠٦/٣.

(٥٢) مرجليوث (١٨٥٨،١٩٤٠) Margoliouth,D.S تخرج باللغات الشرقية من جامعة أكسفورد، وأتقن العربية وكتب فيها بسلاسة، وعمل أستاذا لها في جامعة أكسفورد، انتخب عضوا في المجمع العلمي العربي في دمشق وغيرها، من آثاره: مختارات شعرية لأرسطو مترجمة بالعربية، وترجمة مختارات البيضاوي (١٨٩٤م)، ورسائل المعري متنا وترجمة مع شرح وتذييل وترجمة الأعلام (١٨٩٨م)، ومحمد ونهضة الإسلام. المستشرقون للعقيقي ٥١٨/٢.

(٥٣) القارئ لمقدمة كتاب شاخت The Origins of Muhammadan Jurisprudence "أصول الشريعة المحمدية" يلحظ تعظيم دور الإمام الشافعي والتركيز عليه كمكون أساسي في الدين الإسلامي، ومثله في ذلك "جولد زيهر" الذي ركز على تحليل إسهامات الشافعي في النظرية القانونية. يُنظر: The Origins of Muhammadan Jurisprudence, page B, Great Britain, 1953. ولا ريب أن إسهام الإمام الشافعي عظيم في خدمة الإسلام، ولكن معالجة هؤلاء المستشرقين تأتي في سياق الزعم بأن السنة والإسلام بشكل عام قد تم على أيدي الصحابة ومن بعدهم، وفي سياق الزعم بأن السنة النبوية مُختلقة.

أنها مصطلح وثني في أصله، وإنما تبناه واقتبسه الإسلام"، ويذكر أيضا رأي المستشرق "مارجليوث"، الذي استنتجه عن مفهوم السنة كمصدر للتشريع الإسلامي في صدر الإسلام، والذي لا يبعد عن رأي شاخت، حيث يقول: إن مفهوم السنة يعني ما كان عرفا مألوفا، وانحصر مفهومه في الفترة المتأخرة في أفعال الرسول ﷺ"(٥٤).

كما يرى أستاذه "جولد زيهر" أن السنة لون من ألوان التأثر باليهودية، يقول: هذه هي السنة: العادة المقدسة والأمر الأول، والشكل الذي وصلت به إلينا هو "الحديث"، فهما ليسا بمعنى واحد، وإنما السنة دليل الحديث، فهو عبارة عن سلسلة من المحدثين الذين يوصلون إلينا هذه الأخبار والأعمال المشار إليها طبقة بعد طبقة، مما ثبت عند الصحابة أنه قد حاز موافقة الرسول في أمور الدين، أو الدنيا، وما ثبت أيضا حسب هذا المعنى من المثل التي تُحتَذى كل يوم، وهنا يرى أنه، حتى في الإسلام، أخذت هذه الفكرة مكانا أيضا، أعني اتخاذ قانون مقدس وراء القرآن مكتوبا أو مسموعا، كما هو الحال عند اليهود"(٥٥).

ومن خلال تناول هذه المادة يتبين :أن "روبسون" يردد ما سبقه إليه أساتذته، قد تختلف الألفاظ، غير أن المضامين واحدة.

---

(٥٤) الخليفة، محمد إبراهيم محمد نور، آراء المستشرق جوزيف شاخت حول حجية السنة النبوية من خلال كتابه أصول الشريعة المحمدية ص٥٢، ٥٣ بتصرف، بحث مكمل لنيل درجة الماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية الدعوة بالمدينة المنورة، قسم الاستشراق، ١٤١٧هـ،١٩٩٧م.

(٥٥) جولد تسيهر، إجناس، العقيدة والشريعة في الإسلام تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الدين الإسلامي ص٤٩، ترجمة محمد يوسف موسى وزميليه، الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مصر، دت.

المبحث الأول: السنة بين الكتابة والتدوين الرسمي

من الجوانب التي اهتم بها المستشرقون في دراستهم للسنة النبوية المطهرة؛ ما يتعلق بتدوين السنة ، وذلك بغرض الشكيك في مصدريتها ونقلها ومن ثم الطعن في المصدر الثاني من مصادر الدين، ولقد تناول " روبسون " هذا الجانب حيث أثار الشبهات حول تدوين الحديث الشريف ، وفي المطلبين التاليين عرض لما أثاره من شبهات والرد عليه:

المطلب الأول: "شبهة روبسون " حول كتابة الحديث النبوي:

قال روبسون" :

"But there would be nothing formal about the retailing of stories and little attempt at first to record them.[56]

ترجمة النص :"لم يكن هناك شيءٌ رسمي حول رواية الأحاديث مع محاولات قليلة في البداية لتدوينها".

الرد على هذه الشبهة يأتي في ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: فيما يتعلق بعدم وجود شيء رسمي حول رواية الأحاديث: فإن جملة "شيء رسمي" توحي بأن الدولة لم تتول التدوين، ولم تقم بإجراءات تخصه، فما المقصود بالدولة؟ أليست الدولة في عهد النبوة، تتمثل في رئيسها صلى الله عليه وسلم، ومجلس شوراه، المتمثل في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار، وولاته، وعماله؟

وعليه، أفلم يوجّه النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بالاهتمام بالسنة وحفظها، وتدوينها، وأكّد على تحري الدقة، وحذّر من التقول عليه صلى الله عليه وسلم؟

إن لدينا سيلا جرارا من النصوص التي تدعم هذه المسائل:

أ–الأمر بالبلاغ عنه والتحذير من الكذب عليه صلى الله عليه وسلم:

ففي الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"[٥٧].

---

(٥٦) The Encyclopaedia of Islam (new edition) vol.3 p.23, Leiden E.J. Brill, London luzac&co. 1986.

(٥٧) أخرجه البخاري في صحيحه .كتاب أحاديث الأنبياء . باب ما ذكر عن بني إسرائيل ١٧٠/٤ (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو.

قال القاضي البيضاوي: إنما قال: آية، أي: من القرآن، ولم يقل: حديثا، فإن الآيات – مع تكفل الله بحفظها – واجبة التبليغ، فتبليغ الحديث يُفهم منه بالطريق الأولى، وقيل: إنما قال: آية، ليسارع كل سامع إلى تبليغ ما وقع له من الآي ولو قَلَّ، ليشمل بذلك نقل جميع ما جاء به صلى الله عليه وسلم"[٥٨].

والحديث يتضمن كذلك التحذير من الكذب والافتراء عليه صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك أيضا ما جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"[٥٩].

وفي الصحيح أيضا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ"[٦٠].

وقال صلى الله عليه وسلم: "مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ"[٦١].

فتبليغ أقواله وأفعاله ﷺ واجب، وهذا يتطلب بلا ريب حفظه بدقة، بحيث لا يتطرق إليه تبديل أو تحريف.

وإذا لم يكن هذا التوجيه من النبي الرسول القائد رسمياً، فلسنا ندري، ما هي معايير الرسمية عند المستشرقين!

ولسنا نسيء الظن، ولا نتجنى إذا قلنا إن كثيرا من المستشرقين مولعون بإثارة غبار التشكيك حول السنة النبوية المطهرة.

ب– دعاء النبي ﷺ لمن بلَّغ عنه كما سمع:

فعند أبي داود بسنده عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ"[٦٢].

---

(٥٨) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني ٤٥/١٦، دط، بيروت: دار إحياء التراث، دت. وانظر أيضا: قوت المغتذي على جامع الترمذي ٦٦٥/٢، السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. رسالة دكتوراه: جامعة أمر القرى، مكة المكرمة، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، الباحث: ناصر الغريبي، ١٤٢٤هـ.

(٥٩) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم ٣٣/١ (١٠٧) عن الزبير. و صحيح مسلم، المقدمة، باب في التحذير من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٠/١، رقم ٣.

(٦٠) صحيح مسلم، المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع ١٠/١ رقم ٥.

(٦١) صحيح مسلم، المقدمة، بَابُ وُجُوبِ الرِّوَايَةِ عَنِ الثِّقَاتِ وَتَرْكِ الْكَذَّابِينَ ٨/١، ٩، ١.

(٦٢) سنن أبي داود، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم ٦٨/٤ ، رقم ٣٦٦٠، عن زيد بن ثابت. وسنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ٣٣/٥ (٥٦٥٧، ٥٦٥٨) عن زيد بن ثابت، وعن عبد الله بن مسعود. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في سننه ـ المقدمة ـ باب من بلغ علماً ٨٤/١ (٢٣٠) عن زيد بن ثابت، ٨٥/١ (٢٣٢) عن عبد الله بن مسعود. وأحمد في مسنده ٢٢١/٧ (٤١٥٧) عن عبد الله بن مسعود، ٤٦٧/٣٥ (٢١٥٩٠) عن زيد بن ثابت.

والحديث منقبة عظيمة لكل مبلغ عن النبي صلى الله عليه وسلم، إذ يحظى ببركة دعاء المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقد كان الصحابة يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعاء لهم ولأولادهم، فكيف إذا كان الدعاء منه صلى الله عليه وسلم بلا طلب؟ إن ذلك أدعى لتحري أسباب الحظوة بدعائه صلى الله عليه وسلم(٦٣).

ومن هنا أيضا كان تكلّف الصحابة رضوان الله عليهم المشاق، وتجشمهم السفر البعيد؛ لسماع حديث واحد ممن سمعه مباشرة بلا واسطة من رسول الله صلى الله عليه وسلم(٦٤).

لقد كان اهتمام الصحابة بحديث النبي صلى الله عليه وسلم بليغا، **فقد** كانوا يحفظونه كما يحفظون السورة من القرآن، ويلقنونه أبناءهم كما يلقنونهم القرآن الكريم، ويعملون بما فيه من التوجيهات، وكان هذا الاهتمام أساسا متينا للتدوين العام زمن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وأرضاه.

وكان مما يساعد الصحابة على حفظ الحديث الشريف ومن قبله القرآن الكريم حفظاً جيداً امتلاكهم عددا من المعينات الطبيعة والفطرية التي رُزقوها كأمة أمية، فنمَّت عندهم ملكة الحفظ فقويت ذاكرتهم، ويتضح ذلك في النقطة التالية:

المسألة الثانية: امتلاك الصحابة مُعينات طبيعية على الحفظ:

كان لدى العرب مُعينات طبيعية على الحفظ والاستظهار، ومن تلك المعينات ما يلي:

أ-كان العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب، وكان اعتمادهم في حفظ أنسابهم ومفاخرهم، وأشعارهم على ذاكرتهم، ونجحت هذه الوسيلة في حفظ مئات الآلاف من الأشعار، وأضعافها من الأخبار والروايات عن أيامهم قبل الإسلام، هذا مع تفرقهم وتشرذمهم، ونُدرة الكتابة بينهم.

قال أبو هلال العسكري: والذي تدل عليه أخبار العرب أنهم كانوا يسمعون الخطبة والقصيدة الطويلتين فيحفظونهما، وما روى أنهم كانوا استعادوا الخطيب والشاعر شيئا من كلامهما(٦٥).

---

(٦٣) انظر: الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم، ٢٣٦/٤، حديث رقم ٢٢٢٧، تحقيق: د. باسم فيصل الجوابرة، ط١، الرياض: دار الراية، ١٤١١هـ، ١٩٩١م. وانظر: معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني ٢٣٥/١، حديث رقم ٧٦٥، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، ط١، الرياض: دار الوطن، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م. وفيهما طلب أم سليم الدعاء لابنها أنس رضي الله عنهما.

(٦٤) انظر: حديث سفر جابر بن عبد الله إلى عبد الله بن أنيس رضي الله عنهما إلى مصر ليسمع منه حديثا واحدا. المستدرك على الصحيحين للحاكم، ٦١٨/٤، حديث رقم ٨٧١٥. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

(٦٥) أبو هلال العسكري، عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه ص٧٤، تحقيق: د. مروان قباني، ط١، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

فالحفظ والاعتماد على الذاكرة كان وسيلة رئيسة لحفظ تاريخهم وأدبهم، بل وأنسابهم وتراثهم التاريخي والأدبي، فصاروا يحفظون أنسابهم وتاريخهم وأشعارهم وحكمهم عن ظهر قلب، ويتبارون في هذه المهارة، أيهم أكثر حفظاً لهذا التراث وأجْوَد ضبطاً، وكان الشاعر العربي إذا نظم قصيدة أخذ يرددها في المحافل، ثم لا يلبث قليلاً حتى يحفظها عنه العشرات ويرددونها، حتى يحفظها عنهم المئات، وهكذا حتى تنتشر بين قبائل الجزيرة العربية، وتصبح محفوظة في صدور مئات الرجال لا يكاد يقع بينهم اختلاف كبير في روايتها.

وثمّ رواية عند الطبراني فيها في وصف أمة النبي صلى الله عليه وسلم: "... أناجيلهم في صدورهم"(٦٦).

كما أن النقل عن المصادر، أو الرواية، لم يكن بدعا من النشر والحفظ في عصر الإسلام، بل كان أهم وسيلة عند العرب قبل الإسلام لحفظ ونشر تاريخهم وأخبارهم.

فقد كان لكل شاعر راوية يلازمه، يحفظ شعره، وينقله عنه، فإذا جادت قريحة الشاعر، أخذ يرددها على راويته، حتى يحفظها بإتقان، ويرويها عنه في المحافل.

وإذا كان الداعي إلى حفظ كلام الأدباء والبلغاء والشعراء ما يحتويه نثرهم وشعرهم من حكمة وفصاحة، أو أخبارهم من أمجاد وبطولات، فإن الداعي أقوى وأعظم فيما كان يصدر من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقد أوتي صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم.

ففي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: "بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي" قال أبو عبد الله: "وبلغني أن جوامع الكلم: أن الله يجمع الأمور الكثيرة، التي كانت تكتب في الكتب قبله، في الأمر الواحد، والأمرين، أو نحو ذلك"(٦٧).

ومع هذا كان قليل الكلام، ففي الصحيح عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها "أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يحدث حديثا لو عَدَّه العادُّ لأحصاه" وقال الليث: حدثني يونس عن ابن شهاب أنه قال: أخبرني عروة بن الزبير، عن عائشة أنها قالت: "ألا يعجبك أبو فلان، جاء فجلس إلى جانب حجرتي، يحدثُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يُسْمعني ذلك، وكنت أُسَبِّح، فقام قبل أن أقضي سبحتي، ولو أدركته لرددت عليه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يسرد الحديث كسردكم"(٦٨).

فجوامع الكلم وقلة الكلام بلا ريب من المعينات على الحفظ عنه صلى الله عليه وسلم.

ب-إلى جانب معينات الحفظ الفطرية، حرص الإسلام على تعليم الأمة القراءة والكتابة، فكانت أولى نسمات

---

(٦٦) المعجم الكبير للطبراني ٨٩/١٠، حديث رقم ١٠٠٤٦. وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع، حديث رقم ٣٤٧٣.

(٦٧) صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب المفاتيح في اليد، حديث رقم ٧٠١٣.

(٦٨) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، ١٩٠/٤، حديث رقم ٣٥٦٧.

الوحي الإلهي: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)(٦٩).

ومن أقوى الدلائل على هذا الاتجاه الحضاري الراقي، أن يُجعل فكاك الرقبة بسبب محو الأمية وتعليم القراءة والكتابة، وكأن القراءة والكتابة في الإسلام تعدل الحياة.

فعن ابن عباس، قال: كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة " قال: فجاء غلام يوما يبكي إلى أبيه، فقال: ما شأنك؟ قال: ضربني معلمي قال: الخبيث، يطلب بذَحْل(٧٠) بدر، والله لا تأتيه أبدا"(٧١).

ج–المنهج النبوي في التلقين:

ولهذا المنهج النبوي الكريم ملامح كثيرة، ولكن من أهمها وأفعلها في حفظ السنة:

١–**التكرار**: ومع ما أوتيه صلى الله عليه وسلم من جوامع الكلم، وقلة مفرداته، كان يعمد إلى تكرار ما يقول ثلاثا؛ حتى يُحفظ ويُفهم عنه، ففي الصحيح عن أنس بن مالك: "كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلاَثًا حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ..."(٧٢)، وقد بوب الإمام البخاري: باب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه فقال: ألا وقول الزور" فما زال يكررها وقال: ابن عمر قال النبي ﷺ: هل بلغت ثلاثا؟"(٧٣)، وهذا التكرار من المعينات على الحفظ والاستظهار.

٢–**الدقة في حفظ الألفاظ:**

ففي الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ.. "(٧٤).

---

(٦٩) سورة الأعلى ١: ٥.

(٧٠) الذال والحاء واللام أصل يدل على المقابلة بمثل الجناية، والذحْل: الحق والعداوة، يُقال: طلب بذَحْله، أي بثأره، والجمع ذُحُول. مقاييس اللغة لابن فارس، ٣٧٠/٢، تحقيق: عبد السلام هارون، دط، بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م. مختار الصحاح ١١٢. تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط٥، بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

(٧١) مسند أحمد، ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، حديث رقم ٢٢١٦. وقال محققه الشيخ شعيب الأرناؤوط: حسن. ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

(٧٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، بَابُ مَنْ أَعَادَ الحَدِيثَ ثَلاَثًا لِيُفْهَمَ عَنْهُ ٣٠/١، حديث رقم ٩٥.

(٧٣) صحيح البخاري. كتاب المناقب. باب صفة النبي ﷺ، حديث رقم: ٣٥٦٧.

(٧٤) صحيح البخاري .كتاب التهجد بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَوُّعِ مَثْنَى مَثْنَى ٥٧/٢ (١١٧١)، كتاب الدعوات بَابُ الدُّعَاءِ عِنْدَ الِاسْتِخَارَةِ ٨١/٨ (٦٣٨٢).

ولعل من أوضح النماذج على هذا، حديث البراء بن عازب وفيه: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاَةِ ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الفِطْرَةِ وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ". قَالَ: فَرَدَّدْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا بَلَغْتُ: اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ قُلْتُ: وَرَسُولِكَ قَالَ: ''لاَ وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ"(٧٥).

قال ابن بطال: "حُجةٌ لمن قال: إنه لا يجوز نقل حديث النبى صلى الله عليه وسلم، على المعنى دون اللفظ، وهو قول ابن سيرين، ومالك وجماعة من أصحاب الحديث. وقال المهلب: إنما لم تبدل ألفاظه صلى الله عليه وسلم، لأنها ينابيع الحكمة، وجوامع الكلام، فلو جوز أن يعبر عن كلامه بكلام غيره سقطت فائدة النهاية في البلاغة التي أُعطيها صلى الله عليه وسلم.

وقال بعض العلماء: لم يرد النبى بردِّه على البراء تحرى قوله فقط، وإنما أراد بذلك ما فى قوله: "ونبيك الذى أرسلت" من المعنى الذى ليس فى قوله: "ورسولك الذى أرسلت" وذلك أنه إذا قال: ورسولك الذى أرسلت يدخل فيه جبريل وغيره من الملائكة الذين هم رسل الله إلى أنبيائه، وليسوا بأنبياء، كما قال تعالى فى كتابه: (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ) (٧٦). فأراد بقوله: "ونبيك الذى أرسلت" تخليص الكلام من اللبس؛ أنه صلى الله عليه وسلم المراد بالتصديق بنبوته بعد التصديق بكتابه الذى أوحى الله تعالى إليه، وأمرهم بالإيمان به، وإن كان غيره من رسل الله أيضًا واجب الإيمان بهم، وهذه شهادة الإخلاص والتوحيد الذى من مات عليها دخل الجنة"(٧٧).

فتحري الدقة في اللفظ أو المعنى لا ريب من المعينات على حفظ سنته صلى الله عليه وسلم، ومثل هذا الاهتمام دليل صريح واضح في أن هذا الميراث وُجِدَ ليُحفظ ويُطبق ويُنقل كما سُمع من المعلم صلى الله عليه وسلم.

هـ- يضاف إلى ما سبق تعليم السنة للأبناء كتعليمهم القرآن، والحرص على معرفة ما غابوا عنه من مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ففي الصحيح: ''كان سعد بن أبي وقاص يعلم هذا الحديث بنيه كما يعلم المعلم الغلمان"(٧٨).

---

(٧٥) صحيح البخاري ـ كتاب الوضوء ـ بَابُ فَضْلِ مَنْ بَاتَ عَلَى الوُضُوءِ ٥٨/١ (٢٤٧) ـ وصحيح مسلم ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة ـ باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٢٠٨١/٤ (٢٧١٠) ـ وانظر الإحكام ٨٦/٢.

(٧٦) سورة الحج: ٧٥.

(٧٧) شرح صحيح البخاري، ابن بطال، علي بن خلف بن عبد الملك ٣٦٥/١، تحقيق: أبو تميم ياسر إبراهيم، ط٢، الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

(٧٨) أخرجه البخاري في صحيحه حديث ٢٨٢٢ ـ فتح الباري ٣٥/٦.

ولم تكن همة الصحابة رضوان الله عليهم فقط فيما شهدوه وسمعوه من كلامه صلى الله عليه وسلم، وإنما كانوا أحرص على معرفة ما غابوا عنه، وقصة سيدنا عمر مع جاره رضي الله عنهما في تناوبهما على حضور مجلس النبي صلى الله عليه وسلم[٧٩]، من أوضح الدلائل على هذا.

وكان حرص الصحابة أيضا في تبليغ إخوانهم الذين غابوا عن مجلسه صلى الله عليه وسلم كبيرا.

ففي الصحيح عن عقبة بن عامر، قال : كانت علينا رعاية الإبل فجاءت نوبتي فروحتها بعشي فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما يحدث الناس فأدركت من قوله: "ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين، مقبل عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة" قال فقلت: ما أجود هذه! فإذا قائل بين يدي يقول: التي قبلها أجود فنظرت فإذا عمر قال: إني قد رأيتك جئت آنفا، قال: "ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ – أو فيسبغ – الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء"[٨٠].

فعمر رضي الله عنه أتمّ الفائدة لعقبة بن عامر؛ حيث علم أنه لم يسمع الجزء الأول من الحديث، هكذا كانت عناية الصحابة يعلمون ويُعلّمون، يسمعون ويُبلّغون.

و–من أقوى المعينات على حفظ السنة النبوية، أنها مع القرآن الكريم أساس العمل الصالح في الإسلام، ففيها سلامة عقيدتهم، وصحة عبادتهم، وسمو معاملاتهم وأخلاقهم، فهي ليست فلسفة مجردة منبتة الصلة عن الواقع، وإنما في ضوئها يعتقدون ويتعبدون ويتعاملون ويتخالقون.

عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: " إنا أخذنا القرآن عن قوم ، فأخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر حتى يعملوا ما فيهن من العلم ، قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعا ، وإنه سيرث هذا القرآن قوم بعدنا يشربونه كشربهم الماء ، لا يجاوز تراقيهم، قال: بل لا يجاوز ههنا ، ووضع يده تحت حنكه "[٨١].

هكذا كان شأن الصحابة رضوان الله عليهم مع القرآن ومع السنة النبوية المطهرة، العلم ثم العمل بما علموا.

السر في امتناع بعض الصحابة ﷺ عن التحديث:

دفع الأخذُ بالأحوط والحذر بعضَ الصحابة إلى الامتناع عن التحديث، ويضاف إلى هذا أن بعض الصحابة كانوا منشغلين بالجهاد في سبيل الله أو التجارة، مما جعل بضاعتهم من القرآن والسنة أقل من أولئك الذين لازموا النبي

---

(٧٩) أخرجه البخاري في صحيحه حديث ٨٩ . فتح الباري ١/١٨٥.

(٨٠) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، ١/٢٠٩، حديث رقم ٢٣٤.

(٨١) البدع والنهي عنها، ابن وضاح، محمد بن وضاح بن بزيع المرواني القرطبي ١٧٠، ١٧١، تحقيق: عمرو سليم، ط١، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، جدة: مكتبة العلم، ١٤١٦هـ.

صلى الله عليه وسلم ملازمة النفَس، حتى عدّوا الشعرات البيضاء في شعره ولحيته صلى الله عليه وسلم(٨٢).

ففي الصحيح عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: "صَحِبْتُ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ وَسَعْدًا وَالمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا مِنْهُمْ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا أَنِّي سَمِعْتُ طَلْحَةَ يُحَدِّثُ عَنْ يَوْمِ أُحُدٍ".(٨٣).

ولعل الذي دفعهم إلى ذلك الخوف من وعيد النبي صلى الله عليه وسلم لمن كذب عليه.

ففي الصحيح عن الزبير بن العوام رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"(٨٤).

ويرى الباحث أن اعتقاد هذا النفر من الصحابة بأن إخوانهم يكفونهم البلاغ الواجب عن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي دفعهم إلى التقلل من الحديث عنه صلى الله عليه وسلم، وإلا فإنهم ما كانوا ينكلون عن إبلاغ سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف وقد علموا بدعائه صلى الله عليه وسلم لمن بلغ عنه.

فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ"(٨٥).

وإن الذين بذلوا أنفسهم وأموالهم رخيصة في سبيل الله تعالى، ما كانوا لينكلوا عن الوفاء بوصيته صلى الله عليه وسلم بتبليغ سنته صلى الله عليه وسلم للناس.

وما كان إكثار من أكثر في الرواية تهجما أو اندفاعا عاريا عن الدقة والضبط، بل كان عن ملازمة لصيقة، وتجرد وتفرغ للعلم.

---

(٨٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سُئل: أخضب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: "إنه لم ير من الشيب إلا نحو سبعةَ عشرَ، أو عشرين شعرة في مقدم لحيته" انظر: سنن ابن ماجه، كتاب اللباس، باب من ترك الخضاب، حديث رقم ٣٦٢٩، وصححه الشيخ الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، حديث رقم ٣٦٢٩.

(٨٣) صحيح البخاري . كتاب الجهاد والسير . بَابُ مَنْ حَدَّثَ بِمَشَاهِدِهِ فِي الحَرْبِ ٢٣/٤ (٢٨٢٤) . وانظر فتح الباري ٣٦/٦، ٣٧.

(٨٤) أخرجه البخاري في صحيحه . كتاب العلم . باب إثم من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم ٣٣/١ (١٠٧) عن الزبير . ومسلم في صحيحه . المقدمة . باب في التحذير من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٠/١ (٣).

(٨٥) أخرجه أبو داود في سننه . كتاب العلم . باب فضل نشر العلم ٦٨/٤ (٣٦٦٠) عن زيد بن ثابت . والترمذي في سننه . كتاب العلم . باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ٣٣/٥ (٥٦٥٧، ٥٦٥٨) عن زيد بن ثابت، وعن عبد الله بن مسعود. وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في سننه . المقدمة . باب من بلغ علماً ٨٤/١ (٢٣٠) عن زيد بن ثابت، ٨٥/١ (٢٣٢) عن عبد الله بن مسعود. وأحمد في مسنده ٢٢١/٧ (٤١٥٧) عن عبد الله بن مسعود، ٤٦٧/٣٥ (٢١٥٩٠) عن زيد بن ثابت.

فعن الوليد بن عبد الرحمن، أن أبا هريرة، حدث عن النبي ﷺ أنه قال: من صلى على جنازة فله قيراط، ومن صلى عليها وتبعها فله قيراطان"، فقال له عبد الله بن عمر: انظر ما تحدث به يا أبا هريرة، فإنك تكثر الحديث عن رسول الله ﷺ فأخذ بيده، فذهب به إلى عائشة، فصدقت أبا هريرة، فقال أبو هريرة: والله يا أبا عبد الرحمن، ما كان يشغلني عن رسول الله ﷺ الصفق في الأسواق، ما كان يهمني من رسول الله ﷺ إلا كلمة يُعلمُنيها، أو لقمة يُلقمُنيها"(٨٦).

المسألة الثالثة: كتابة الحديث في زمن النبي ﷺ:

ثمة شواهد مبينة على أن كتابة الحديث وقعت في زمانه صلى الله عليه وسلم، على عينه وبإذنه، ومن هذه الشواهد:

١-الصحيفة الصادقة، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: استأذنت النبي ﷺ في كتابة ما سمعت منه، قال: فأذن لي فكتبته ، فكان عبد الله يسمي صحيفته تلك الصادقة"...

وعن مجاهد، قال: رأيت عند عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفة فسألت عنها، فقال: هذه الصادقة، فيها ما سمعت من رسول الله ﷺ، ليس بيني وبينه فيها أحد"(٨٧).

٢-ما ثبت عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه أمر ابنه بكتابة حديث عن رسول الله ﷺ.

فعن محمود بن الربيع قال: قدمت المدينة، فلقيت عتبان، فقلت: حديث بلغني عنك، قال: أصابني في بصري بعض الشيء، فبعثت إلى رسول الله ﷺ أني أحب أن تأتيني فتصلي في منزلي، فأتخذه مصلى، قال: فأتى النبي ﷺ ومن شاء الله من أصحابه، فدخل، وهو يصلي في منزلي، وأصحابه يتحدثون بينهم، ثم أسندوا عظم ذلك وكبره إلى مالك بن دخشم، قالوا: ودوا أنه دعا عليه فهلك، ودوا أنه أصابه شر، فقضى رسول الله ﷺ الصلاة، وقال: أليس يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟"، قالوا: إنه يقول ذلك، وما هو في قلبه، قال: لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فيدخل النار، أو تطعمه"، قال أنس: فأعجبني هذا الحديث، فقلت لابني: اكتبه فكتبه"(٨٨).

وهذا يعني أنه كان يكتب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن أمثلة الصحف التي كتبها الصحابة في الحديث:

أ-صحيفة سعد بن عبادة الأنصاري. ب-صحيفة عبد الله بن أبي أوفى.

ج-نسخة سمرة بن جندب (ت ٦٠هـ) جمع فيها أحاديث كثيرة.

د-كتاب أبي رافع مولى النبي ﷺ وفيه استفتاح الصلاة.

---

(٨٦) مسند أحمد، ومن مسند بني هاشم، مسند أبي هريرة، حديث رقم: ٩٠١٦. وقال محققه: صحيح على شرط مسلم. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ٦٢٢٦

(٨٧) الطبقات الكبرى ٣٧٣/٢، ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء. تحقيق: إحسان عباس. ط١، بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م.

(٨٨) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة، حديث رقم ٣٣.

هـ-كتب أبي هريرة. و-صحيفة أبي موسى الأشعري (ت٥٠هـ).

ز-صحيفة جابر بن عبد الله الأنصاري (ت٧٨هـ).

ح-صحيفة أبي سلمة نبيط بن شريط الأشجعي الكوفي.

ط-الصحيفة الصحيحة لهمام بن منبة (ت١٣١هـ)، دونها ورواها عن أبي هريرة (ت٥٩هـ)، وتضم ١٣٨ حديثا[٨٩].

وثمة كتابات أخرى تمت الإشارة إليها.

فقد ثبت أن سعد بن عبادة الأنصاري -وقد كان يُحسن الكتابة والعَوْم قبل الإسلام، فكان يُلقب بالكامل[٩٠]- كانت لديه صحيفة حديث مكتوبة.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قضى رسول الله ﷺ باليمين مع الشاهد الواحد". قال ربيعة: وأخبرني ابنٌ لسعد بن عبادة قال: وجدنا في كتاب سعد أن النبي ﷺ قضى باليمين مع الشاهد"[٩١].

وهذا يدل على أنه كان يَكْتُبُ الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل جاء في السنن الكبرى للبيهقي عن سعد بن عمرو بن شُرحبيل بن سعد بن عبادة أنه وجد كتابا في كُتب آبائه... الحديث"(٩٢).

وكذلك صحيفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ.

فعن أبي الطفيل قال: سئل علي، أخصَّكم رسول الله ﷺبشيء؟ فقال: ما خصنا رسول الله ﷺبشيء لم يعم به الناس كافة، إلا ما كان في قراب سيفي هذا، قال: فأخرج صحيفة مكتوب فيها: لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من سرق منار الأرض، ولعن الله من لعن والده، ولعن الله من آوى محدثا"[٩٣].

وعن الحارث بن سويد قال: قيل لعلي إن رسول الله ﷺخصكم بشيء دون الناس عامة، قال: ما خصنا رسول الله ﷺ بشيء لم يخص الناس، ليس شيئا في قِرَاب سيفي هذا، فأخذ صحيفة فيها شيء من أسنان الإبل وفيها: إن المدينة حَرَمٌ ما بين ثور إلى عير، فمن أحدث فيها حدثا أو آوى محدثا، كان عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا

---

(٨٩) بحوث في تاريخ السنة النبوية المشرفة، د. أكرم ضياء العمري ٢٩٤، ٢٩٥، ط٤، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م.

(٩٠) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني ٣/٦٦، تحقيق: علي محمد البجاوي. ط١، بيروت: دار الجيل، ١٤١٢هـ.

(٩١) سنن الترمذي، أبواب الجنائز عن رسول الله ﷺ، أبواب الأحكام عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في اليمين مع الشاهد، حديث رقم ١٣٤٣. وصححه الشيخ الألباني، حديث رقم ١٣٤٣.

(٩٢) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب الشهادات، باب القضاء باليمين مع الشاهد، ١٠/١٧١، حديث رقم٢١١٧١. ط١، الهند: مجلس دائرة المعارف النظامية، ١٣٤٤هـ.

(٩٣) صحيح مسلم ،كتاب الأضاحي ، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله — حديث رقم ١٩٧٨.

يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل، وذمة المسلمين واحدة فمن أخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل"(٩٤).

فتلك أدلة تثبت الكتابة زمنَ النبي صلى الله عليه وسلم من غير واحد من الصحابة، ويوضح سبب الإذن للبعض ونهي البعض عن الكتابة، وهو منهج نبوي مطرد، ليس في مسألة الكتابة فقط، وإنما فيها وفي غيرها.

ويرى البعض أن النهي عن الكتابة كان أولا، ثم نُسخ بالإذن فيها.

قال البغوي: والنهي يُشبه أن يكون متقدما، ثم أباحه وأذن فيه"(٩٥).

وقال ابن الجوزي في قوله صلى الله عليه وسلم: "اكتبوا لأبي شاة": وفي هذا دليل على جواز كتابة العلم، وأن النهي عن كتابة غير القرآن منسوخ"(٩٦).

ولا ريب أن "روبسون" لا يخفى عليه أن من طبيعة الشريعة الإسلامية، التدرج في تطبيق الأحكام مراعاة لأحوال المكلفين، ولكن هذه طبيعة الاستشراق المغرض، الذي يتغافل عن الحقائق طمعا في توجيه سهام الشك والتشويه لهذا الدين.

والذي يظهر : أنه يردد زعم مَن سبقه من المستشرقين، إذ لو صدق في بحثه؛ لوقف على ما أسلفته من شواهد الكتابة والتدوين، فضلا عن المعينات الكثيرة على حفظ السنة.

---

(٩٤) السنن الكبرى للنسائي ، كتاب المناسك ، إشعار الهدي ، منع الدجال من المدينة ٢٥٨/٤، حديث رقم ٤٢٦٣، تحقيق: حسن شلبي. ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، حديث:١٩٨٦.

(٩٥) شرح السنة، البغوي، الحسين بن مسعود ٢٩٤/١، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد الشاويش، ط٢، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

(٩٦) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد ٣٨٧/٣، تحقيق: علي البواب، دط، الرياض: دار الوطن، دت. وسيأتي بيان ذلك مفصلا في المطلب التالي.

المطلب الثاني: إشكالية أحاديث الأمر بالكتابة والنهي عنها:

يقول روبسون:

The theory was held by some that traditions should be conveyed only by word of mouth and not written, and there are even traditions in the books supporting this view. Abu Da'ud rather curiously gives two traditions, one after the other, the first stating that the prophet gave command to write tradtions and the second stating that he forbade writing them.(97)

ترجمة النص: "قامت النظرية أن الأحاديث ينبغي أن تنقل شفهياً فقط، وأن لا تكتب، وثمة أحاديث تدعم هذا الرأي، كما عند أبي داود، حيث روى بغرابة حديثين، واحداً بعد الآخر، يصرح الأول بأن النبي قد أصدر أمراً لتدوين الأحاديث، والثاني يصرح بأنه قد منع كتابتها".

الرد على هذه الشبهة يأتي في عدة مسائل:

المسألة الأولى: تكليف الأفراد بما يناسب مقتضى حالهم:

من المناهج الدعوية النبوية مراعاة أحوال السائلين، وذلك في ضوء معرفته بهم، وتفرسه في أحوالهم، أو ما يوحي إليه صلى الله عليه وسلم.

والمثال الواضح في هذا الصدد، أن غير واحد من الصحابة رضوان الله عليهم طلب الوصية من النبي ﷺ، فمرة يُوصي بـ: "...لا تغضب"(٩٨)، وأخرى يقول: "... أوصيك بتقوى الله، والتكبير على كل شرف، فلما مضى قال: اللهم ازو له الأرض وهوّن عليه السفر"(٩٩).

والظاهر أن الرجل كان على سفر، فأوصاه ﷺ بما يناسب حاله، وينفعه في سفره، وشفع ذلك بما كان من ديدنه صلى الله عليه وسلم من الدعاء لأصحابه، ما يظهر حبه لهم، وحرصه عليهم، ورحمته بهم.

وطلب إليه أحدهم الوصية فقال: ﷺ: عليك باتقاء الله، ولا تحقرن من المعروف شيئا، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، وتكلم أخاك، ووجهك إليه منبسط، وإياك وإسبال الإزار، فإنها من المخيلة ولا يحبها الله، وإن امرؤ عيرك

---

(٩٧) The Encyclopaedia of Islam (new edition) vol.3 p.٢٤

(٩٨) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، حديث رقم٦١١٦.

(٩٩) صحيح ابن خزيمة، كتاب المناسك، باب وصية المسافر بالتكبير عند صعود الشرف والتسبيح عند الهبوط، ١٤٩/٤، حديث رقم٢٥٦١، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، دط، بيروت: المكتب الإسلامي، دت. وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ٢٥٤٥. وفي الكلم الطيب، حديث رقم ١٧١.

بشيء يعلمه فيك، فلا تعيره بشيء تعلمه منه، دعه يكون وباله عليه، وأجره لك، ولا تسبن شيئا"، قال: فما سببت بعده دابة ولا إنسانا"[١٠٠].

ويقول لمستوصٍ آخر ﷺ: ... اعبد الله لا تشرك به شيئا، قال: يا نبي الله زدني، قال: إذا أسأت، فأحسن، قال: يا رسول الله زدني، قال: استقم وليحسن خلقك"[١٠١].

والأمثلة على ذلك كثيرة، وهي تبرز المنهجية النبوية الشريفة في الوصية بما يناسب حال المستوصي، وكذلك أيضا في تكليف أصحابه بما يعلمه من أحوالهم، مما لا يَعسُر عليهم أو يشُق، أو يكون فتنة لبعضهم.

فنراه صلى الله عليه وسلم يستعمل بعض أصحابه على أعماله، ويوليهم الولايات، ويتجنب تأمير بعضهم أو تكليفه بأعمال العامة، كما حدث مع أبي ذر رضي الله عنه وأرضاه.[١٠٢].

وعلى تلك القاعدة التي أثبتها؛ كان نهيه ﷺ بعض الصحابة عن الكتابة، وإذنه لآخرين، فكان نهي البعض أن يقع منهم خلط بين القرآن والسنة.

وفي نفس الوقت أذن لآخرين بالكتابة، ممن يعلم من أحوالهم القدرة على الفصل، أو الدقة والضبط، كعبد الله بن عمرو بن العاص، حيث أذن له بالكتابة؛ كما أمر ﷺ في حجة الوداع بالكتابة لأبي شاة[١٠٣].

المسألة الثانية: استعراض أحاديث النهي عن الكتابة والإذن فيها:

وهذا الاستعراض تكتمل به الصورة، فيتضح الأمر، وتنتفي شبهة "روبسون".

أولا: أحاديث النهي عن الكتابة:

١ – عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقال: لاَ تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ.. الحديث[١٠٤].

---

(١٠٠) صحيح ابن حبان، كتاب البر والإحسان، فصل من البر والإحسان، ٢٧٩/٢، حديث رقم٥٢١، تحقيق: شعيب الأرناؤوط. ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، حديث رقم ٢٦٨٧ و ٢٧٨٢، وفي صحيح الجامع، حديث رقم ٩٨.

(١٠١) صحيح ابن حبان، كتاب البر والإحسان، فصل من البر والإحسان، ذكر الإخبار بأن على المرء تعقيب الإساءة بالإحسان ما قدر عليه، ٢٨٣/٢، حديث رقم ٥٢٤. وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، حديث رقم ٢٦٥٤ و ٣١٥٨.

(١٠٢) ففي صحيح مسلم، عن أبي ذر، قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: "يا أبا ذر ، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها" كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، ١٤٥٧/٣، حديث رقم ١٨٢٥.

(١٠٣) صحيح البخاري، كتاب في اللقطة، باب كيف تُعرّف لقطة أهل مكة، حديث رقم ٢٤٣٤.

(١٠٤) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق. باب التثبت في الحديث وحكم كتابه العلم، حديث رقم ٣٠٠٤.

٢ – وعن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ أيضا قال: "جَهِدْنَا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْذَنَ لَنَا فِي الكِتَابِ فَأَبَى ". وفي رواية عنه قَالَ: "اسْتَأْذَنَّا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الكِتَابَةِ فَلَمْ يَأْذَنْ لَنَا"(١٠٥).

٣ – وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا قعودًا نكتب ما نسمع من النبي صلى الله عليه وسلم.، فخرج علينا؛ فقال: ما هذا تكتبون ؟ فقلنا: ما نسمع منك، فقال: أكتاب مع كتاب الله ؟ فقلنا: ما نسمع. فقال: اكتبوا كتاب الله، امحضوا كتاب الله، أكتاب غير كتاب الله، امحضوا كتاب الله أو خلّصوه، قال: فجمعنا ما كتبنا في صعيد واحد، ثم أحرقناه بالنار. قلنا: أي رسول الله أنتحدث عنك؟ قال: نعم. تحدثوا عنى ولا حرج، ومن كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار، قال فقلنا: يارسول الله أنتحدث عن بني إسرائيل؟ قال: نعم. تحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، فإنكم لا تحدثون عنهم بشيء إلا وقد كان فيهم أعجب منه"(١٠٦).

٤ــ وفي سنن أبي داود، دخل زيد بن ثابت على معاوية، فسأله عن حديثٍ، فأمر إنساناً يكتبُه، فقال له زيد: إن رسولَ الله –صلَّى الله عليه وسلم– أمرنا أن لا نكتُب شيئاً من حديثه، فمَحَاه(١٠٧).(١٠٨).

فهذه أحاديث واضحة الدلالة في منع كتابة الحديث.

ثانيا: أحاديث إباحة الكتابة:

وفي مقابل الأحاديث السابقة، ثمّ أحاديث أخرى تدل على الإذن في الكتابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنها:

---

(١٠٥) سنن الترمذي، كتاب العلم. باب ما جاء في كراهية كتابة العلم – حديث رقم ٢٦٦٥، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، إبراهيم عوض. ط٢، القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.وصححه الشيخ الألباني في صحيح سنن الترمذي، حديث رقم ٢٦٦٥. وقال أبو عيسى: وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه أيضًا عن زيد بن أسلم، رواه همام عن يزيد بن أسلم. وأخرجه الدارمي في سننه. المقدمة. باب من لم ير كتابة الحديث ١/ ١٣١، حديث رقم ٤٥١.

(١٠٦) مسند أحمد، ومن مسند بني هاشم، مسند أبي سعيد الخدري، حديث رقم١١٠٩٢. وقال محققه الشيخ شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف، لضعف عبد الرحمن بن زيد، وهو ابن أسلم العدوي، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح. إسحاق بن عيسى هو ابن الطباع. ١٥٧/١٧، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد وآخرين. ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م. ٣/ ١٢، ١٣.

(١٠٧) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب في كتاب العلم ٥/ ٤٩٠، حديث رقم ٣٦٤٧. وقال محققو السنن: إسناده ضعيف لانقطاعه، المطلب بن عبد الله بن حنطب لم يسمع من زيد ابن ثابت. أبو أحمد: هو محمد بن عبد الله الزبيري. هامش ٢، ٥/٤٩٠. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد كامل قره بللي، ط١، بيروت: دار الرسالة، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

(١٠٨) يُنظر للاستزادة في اتجاه النهي عن الكتابة: بحوث في تاريخ السنة النبوية المشرفة، د. أكرم ضياء العمري ص٢٩٢، ٢٩٣.

١ – عن عَبْدُ اللَّه بْن عَمْرو بْن العَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺأُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ، وَقَالُوا: تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺوَرَسُولُ اللَّهِ ﷺبشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، فَأَمْسَكْتُ عَنِ الكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺفَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ وَقَالَ: اكْتُبْ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنْهُ إِلاَّ حَقٌّ"(١٠٩).

٢ – وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺأَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي، إِلاَّ مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بن عَمْرٍو، فإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلاَ أَكْتُبُ(١١٠).

٣ – عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رجل يشهد حديث النبي صلى الله عليه؛ فلا يحفظه، فيسألني، فأحدثه، فشكا قلة حفظه إلى رسول الله، صلى الله عليه، فقال له النبي صلى الله عليه: استعن على حفظك بيمينك" يعني الكتاب"(١١١).

٤ – وعن رافع بن خديج قال: خرج علينا رسول الله ﷺفقال: تحدثوا وليتبوأ من كذب علي مقعده من جهنم، قلت: يا رسول الله إنا نسمع منك أشياء فنكتبها، فقال: اكتبوا ولا حرج"(١١٢).

٥ – وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَيِّدُوا العِلْمَ بِالْكِتَابِ(١١٣). وقد صحح الشيخ الألباني وقفه على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ

٦ – وعَنْه صلى الله عليه وسلم أنه: أَنَّهُ كَتَبَ كِتَابَ الصَّدَقَاتِ وَالدِّيَاتِ وَالفَرَائِضَ وَالسُّنَنَ لِعَمْرُو بْنَ حَزْمٍ وَغَيْرِهِ(١١٤).

---

(١٠٩) سنن أبي داود، كتاب العلم، باب في كتاب العلم – حديث رقم ٣٦٤٦. وصححه الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود، حديث رقم ٣٦٤٦.

(١١٠) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم، حديث رقم١١٣.

(١١١) تقييد العلم، الخطيب البغدادي، الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت ص ٦٥ وما بعدها، دط، بيروت: إحياء السنة النبوية، دت. وفي الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، ٢٤٩/١، تحقيق: د.محمود الطحان، دط، القاهرة: مكتبة المعارف، ١٤٠٣هـ.

(١١٢) المعجم الكبير للطبراني، ٢٧٦/٤ حديث رقم ٤٤١٠. تحقيق: حمدي السلفي، ط٢، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ١٤١٥هن ١٩٩٤م.

(١١٣) المستدرك على الصحيحين، الحاكم، محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري، ١٨٧/١حديث رقم٣٥٩، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ١١٩٦و ٤٤٣٤.

(١١٤) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر٣٠٣/١، رقم ٣٩٢، تحقيق أبي الأشباب الزهيري، ط١، السعودية: دار ابن الجوزي، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

٧ – وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: لما فتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم مكة؛ قام في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، فإنها لا تحل لأحد كان قبلي، وإنها أحلت لي ساعة من نهار، وإنها لا تحل لأحد بعدي، فلا يُنَفَّر صيدُها، ولا يُختلى شوكها، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يفدى وإما أن يقيد، فقال العباس: إلا الإذخر، فإنا نجعله لقبورنا وبيوتنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إلا الإذخر. فقام أبو شاه – رجل من أهل اليمن – فقال: اكتبوا لي يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اكتبوا لأبي شاه، قلت للأوزاعي : ما قوله اكتبوا لي يا رسول الله ؟ قال : هذه الخطبة التي سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم"(١١٥).

ثالثا: توفيق العلماء بين أحاديث الأمر والنهي عن الكتابة:

إن أقوال النبي صلى الله عليه وسلم لا تتعارض، وكيف تتعارض أقوال الذي لا ينطق عن الهوى؟! وما كان منها موهما التعارض، فقد انبرى لبيانه ودفع توهم تعارضه العلماء الأفذاذ، ببيان الناسخ والمنسوخ، والخاص الذي يُحكم به على العام، أو المقيد الذي يُحكم به على المطلق، وهكذا.

وفي مسألة التعارض بين أحاديث الأمر والنهي عن الكتابة أقوال العلماء التالية:

الأول: "أن النهى عن كتابة الحديث منسوخ، وإنما كان النهي أول الأمر خوف التباس الحديث بالقرآن، إذ لم يكن قد اشتد إلف الناس بالقرآن ... فلما ألفه الناسُ، وعرفوا أساليبه، وكمال بلاغته، وحسن تناسب فواصله وغايته؛ صارت لهم ملكة يميزونه بها من غيره، فلم يخش اختلاطه بعد ذلك؛ فلذا قال: فلما أمن ذلك أذن فيه (١١٦).

وعليه فإن حديث "حرصنا أن يأذن لنا رسول الله ﷺ في الكتاب فأبى، أحسب أنه كان محفوظا في أول الهجرة، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن(١١٧).

فنهي النبي أول الأمر وإذنه بعدُ يحتمل "معنيين: **أحدهما:** أن يكون من منسوخ السنة بالسنة، كأنه نهى في أول الأمر عن أن يكتب قوله، ثم رأى بعد – لما علم أن السنن تكثر وتفُوتُ الحفظَ– أن تُكتب وتُقيّد. **والمعنى الآخر**: أن يكون خص بهذا عبد الله بن عمرو؛ لأنه كان قارئا للكتب المتقدمة، ويكتب بالسريانية والعربية، وكان غيره من

---

(١١٥) صحيح البخاري، كتاب في اللقطة، باب كيف تُعرّف لقطة أهل مكة، حديث رقم ٢٤٣٤.

(١١٦) توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، الأمير الصنعاني، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني ٢١٨/٢، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

(١١٧) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، الرامهرمزي، الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد أبو محمد الفارسي ص٣٨٦، تحقيق: د.محمد عجاج الخطيب. ط٣، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٤هـ.

الصحابة أميين، لا يكتب منهم إلا الواحد والاثنان، وإذا كتب لم يتقن، ولم يُصب التهجي، فلما خشي عليهم الغلط فيما يكتبون؛ نهاهم، ولما أمن على عبد الله بن عمرو ذلك أذن له(١١٨).

الثاني: أن الصحابة رضوان الله عليهم " كانوا يسمعون تأويل الآية، فربما كتبوه معه ... فنُهوا عن ذلك، عن خلط كتابه القرآن بتأويل في صحيفة؛ لخوف الاشتباه. والله أعلم"(١١٩)، فيكون النهي عن جمع القرآن والسنة في صحف واحدة.

الثالث: أن النهي إنما كان في حق من وُثق بحفظه، وخيف اتكاله على الكتابة، وأمّا الإذن بالكتابة فقد كان في حق من لا يوثق بحفظه كأبي شاه(١٢٠).

الرابع: أن الصحابة رضوان الله عليهم أخذوا الحديث شفاهة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرادوا أيضا نقله شفاهة إلى مَن وراءهم، وكرهوا أن يُغيروا هذه السنة في التلقي.

"قال العلماء كره جماعة من الصحابة والتابعين كتابة الحديث، واستحبوا أن يُؤخذ عنهم حفظا، كما أخذوا حفظا، لكن لما قصرت الهمم، وخشي الأئمة ضياع العلم دونوه، وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كثر التدوين، ثم التصنيف، وحصل بذلك خير كثير، فلله الحمد"(١٢١).

الخامس: أن يكون النهي عَامًّا وخص بالسماح له من كان قارئًا كاتبًا مجيدًا لا يخطئ في كتابته، ولا يخشى الغلط، كعبد الله بن عمرو الذي أَمِنَ عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّ هذا، فأذن له، وهذا هو المعنى الآخر الذي فهمه ابن قتيبة من تلك الأخبار(١٢٢).

ويرى الباحث أنه يمكن الجمع بين أحوال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فإن منهم من كان يكتب القرآن والسنة في صحف واحدة، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك خشية اشتباهه مع القرآن، كما كان منهم قوي الحافظة فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن الكتابة اعتمادا على حافظته، ومنهم من وثق النبي صلى الله عليه وسلم بقدرته في الكتابة، وقدرته على الفصل بين كتاب الله تعالى وسنة رسوله فأذن لهم.

---

(١١٨) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة الدينوري ص٢٨٦، ٢٨٧ عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: محمد زهري النجار. دط، بيروت: دار الجيل، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٢م.

(١١٩) توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، الأمير الصنعاني ٢/٢١٩ بتصرف.

(١٢٠) المرجع السابق ٢/٢١٨.

(١٢١) فتح الباري لابن حجر ١/٢٠٨.

(١٢٢) يُنظر: تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة الدينوري ص٢٨٧.

المطلب الثالث: مناهج التصنيف في مدونات الحديث:

يقول روبسون:

when more forma books were first compiled they were of the type called musnad works, the word indicating that each companion's traditions were collected together. while this arrangment has its interest, it is not very convenient. people would wnt to consult tradtions on particular subjects and would therefore need to read through much irrelevant material befor discovering what they were seeking. Such works as those of al-Tayalisi and of Ahmad b. Hanbal are arranged according to this method. Malik had arranged his Muwattay according to the subject-matter, but the 3rd/gth century was the time when the important musannaf (classified) works were compiled. They were said to be arranged according to the sub-sections, and this arrangment of the material proved to be much mor convenient.(123)

ترجمة النص: عندما بدأ التصنيف رسمياً كان أول ما صنف من الكتب المسانيد، وهي الكتب التي جمعت أحاديث كل صحابي، وحيث كان لهذا الترتيب من يهتم به، إلا أنه لم يكن ملائماً، فمن يريد الرجوع إلى موضوع محدد، يضطر إلى قراءة مواد غير ذات صلة، قبل الوصول إلى ما يطلب، هذه الكتب مثل مسند الطيالسي (المتوفى ٢٠٣/٨١٨) ومسند أحمد بن حنبل (المتوفى ٢٤١/٨٥٥)، وقد تم ترتيبها طبقاً لهذا المنهج، وأما مالك بن أنس فقد رتب مُوطَّأَهُ طبقاً للموضوع، ولكن القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي كان العصر الذي صُنِّفت فيه المصنفات المهمة التي رُتِّبت "على الأبواب"(طبقاً للأقسام الفرعية)، وقد أثبت هذا النوع من الترتيب أنه أكثر إقناعاً".

التعقيب على قول روبسون:

لن نختلف كثيرا مع "روبسون" في هذه المسألة، وإن كان تناوله لهذا الجانب المهم في خدمة السنة النبوية تناولا مقتضبا، لا يتواءم مع الجهود الجبارة التي قدمها علماء السنة لخدمتها.

فلقد تفنن علماء الحديث في طرق التصنيف والتبويب لحديث النبي صلى الله عليه وسلم، ولكل طريقة فوائدها ومريدوها، ومنهجية التصنيف في حد ذاته من أقوى الأدلة على اهتمام هذه الأمة بسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١٢٣) The Encyclopaedia of Islam (new edition) vol.3 p.٢٤

ولا يخفى أن ما كان يكتب في زمن النبي ﷺ والصحابة والتابعين لم يكن مرتباً مبوباً، إنما كان يُكتب للحفظ والمراجعة فقط"[١٢٤].

فلم يكن الحديث "مؤلفا كتبا وأبوابا في زمن المتقدمين من الصحابة والتابعين، وإنما فَعل ذلك مَن بعدهم، ثم حذا المتأخرون فيه حذوهم. واختُلف في المُبْتَدِئِ بتصانيف الكتب والسابق الى ذلك: فقيل هو سعيد بن أبي عروبة، وقيل هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج"[١٢٥]، ثم كان التصنيف والتبويب بعد ذلك.

وكان "أول مَن صنف وبوب الربيع بن صبيح بالبصرة، ثم سعيد بن عروبة بها، وخالد بن جميل، الذي يقال له العبد، ومعمر بن راشد باليمن، وابن جريج بمكة، ثم سفيان الثوري بالكوفة، وحماد بن سلمة بالبصرة، وصنف سفيان بن عيينة بمكة، والوليد بن مسلم بالشام، وجرير بن عبد الحميد بالري، وعبد الله بن المبارك بمرو وخراسان، وهشيم بن بشير بواسط، وصنف في هذا العصر بالكوفة ابن أبي زائدة، وابن فضيل، ووكيع، ثم صنف عبد الرزاق باليمن، وأبو قرة موسى بن طارق، وتفرد بالكوفة أبو بكر بن أبي شيبة بتكثير الأبواب وجودة الترتيب، وحسن التأليف"[١٢٦].

ففنون التصنيف في علوم الحديث لم تكن تدراكا لأخطاء تجارب سابقة، وإنما كانت تفننا من العلماء في خدمة السنة، وتيسير تناولها لطلبة العلم ولعامة المسلمين، وليست هذه الفنون غطاء لسراب بقيعة كما يزعم المستشرقون، فالسنة النبوية قول النبي صلى الله عليه وسلم وفعله وتقريراته وصفاته، وليست كلاما انتُحل له أو عليه، وفيما يلي إطلالة على شيء من جهود علماء السنة في التصنيف.

طرق التصنيف في الحديث النبوي الشريف:

تفنن علماء الحديث في طرق تصنيف الحديث النبوي الشريف، ولكل طريقة فوائدها وروادها ومريدوها من العلماء وطلبة العلم، وفيما يلي إطلالة موجزة على طرق التصنيف:

أ- **الجوامع**: وهي " كل كتاب يَجمع فيه مؤلفه جميع الأبواب من العقائد، والعبادات، والمعاملات، والسير، والمناقب، والرِّقاق، والفتن، وأخبار يوم القيامة"، ومن الأمثلة عليها: الجامع الصحيح للإمام البخاري، والجامع الصحيح للإمام مسلم، والجامع للإمام الترمذي"[١٢٧].

---

(١٢٤) شرح علل الترمذي، ابن رجب الحنبلي ٣٤٧/١، تحقيق د.همام عبد الرحيم سعيد. ط٢، الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

(١٢٥) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت ٢٨١/٢، تحقيق: محمود الطحان. دط، الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٣هـ.

(١٢٦) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، الرامهرمزي، الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد ٦١١، ٦١٢.

(١٢٧) تيسير مصطلح الحديث، محمود الطحان ص٢٠٨، ط١٠، القاهرة: مكتبة المعارف، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

ب-**السنن**: وهي التي تجمع أحاديث الأحكام المرفوعة، مرتبة على أبواب الفقه، ومنها: كتاب سنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجه.

ج-**المصنفات**: وهي التي تكون مرتبة على أبواب الفقه كسابقتها، بيد أنها تجمع مع المرفوع الحديثَ الموقوفَ والحديث المقطوع، ومن الأمثلة عليها: مصنف عبد الرزاق بن همام الصنعاني، ومصنف أبي بكر بن أبي شيبة(١٢٨).

د-**المستدركات**: "الاستدراك في اصطلاح أهل الحديث، هو جمع الأحاديث التي تكون على شرط أحد المصنفين، ولم يخرجها في كتابه، ومعلوم أن الشيخين لم يستوعبا الصحيح في كتابيهما، ولا التزما ذلك، فهناك أحاديث هي على شرطهما، أو على شرط أحدهما لم يخرجاها في كتابيهما، وقد عني العلماء بالاستدراك عليهما، وألفوا في ذلك المصنفات، وأطلقوا عليها اسم المستدركات، ومن أهم هذه المستدركات المستدرك لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه، الحاكم النيسابوري المتوفى سنة "٤٠٥". وكتاب الإلزامات لأبي الحسن علي بن عمر بن أحمد الدارقطني، البغدادي أمير المؤمنين في الحديث المتوفى سنة "٣٨٥". جمع فيه ما وجده على شرط الشيخين من الأحاديث، وليس بمذكور في كتابيهما، وألزمهما ذكره -وهو غير لازم كما تقدم لك- ورتبه على المسانيد في مجلد لطيف. (١٢٩).

هـ-**المستخرجات**: "هي الكتب التي تُعنى باستخراج أحاديث كتاب معين من كتب السنة لكن بإسناد آخر للمستخرِج من غير طريق صاحب الكتاب الأول"(١٣٠)، "فيخرج أحاديثه بأسانيد لنفسه من غير طريق صاحب الكتاب، فيجتمع معه في شيخه، أو من فوقه، ومن أشهر المستخرجات على الصحيحين: المستخرج، لأبي بكر الإسماعيلي، على البخاري، والمستخرج، لأبي عوانة الإسفراييني، على مسلم، والمستخرج، لأبي نعيم الأصبهاني، على البخاري ومسلم(١٣١).

و-**المسانيد**: " أن يجمع المحدث في ترجمة كل صحابي ما يرويه عنه من حديثه سواء كان صحيحا أم غير صحيح، ويجعله على حدة، وإن اختلفت أنواعه فمثلا يذكر أبا بكر، ثم يسرد ما رواه عنه من الأحاديث، وإن اختلفت موضوعاتها، ثم عمر كذلك وهلم جرا، ولهم في ترتيب أسماء الصحابة طرق مختلفة، فمنهم من رتبها على القبائل، فقدم بني هاشم ثم الأقرب فالأقرب نسبا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم من رتبها على السوابق في الإسلام، فقدم العشرة المشهود لهم بالجنة، ثم أهل بدر ثم أهل الحديبية، ثم من أسلم وهاجر بين الحديبية والفتح، ثم من أسلم

---

(١٢٨) منهج النقد في علوم الحديث، نور الدين محمد عتر الحلبي ص٢٠٠، ط٣، دمشق: دار الفكر، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

(١٢٩) الحديث والمحدثون، محمد محمد أبو زهو، ص٤٠٧: ٤٠٩، دط، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٣٧٨هـ.

(١٣٠) علم التخريج ودوره في حفظ السنة النبوية، محمد محمود بكار، ص٥٠، دط، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، دت.

(١٣١) تيسير مصطلح الحديث، محمود الطحان ص٥١.

يوم الفتح، ثم أصاغر الصحابة سنا ثم النساء، ومنهم من لم يراع شيئا من ذلك، والمسانيد التي ألفت في هذا العصر كثيرة جدًّا منها: مسند عبيد الله بن موسى المتوفى سنة "٢١٣"، ومسند الحميدي "٢١٩" ومسند مسدد بن مسرهد "٢٢٨"، ومسند إسحاق بن راهويه "٢٣٧"، ومسند عثمان بن أبي شيبة "٢٣٩"، ومسند الإمام أحمد بن حنبل "٢٤١"، ومسند عبد بن حميد "٢٤٩"، والمسند الكبير ليعقوب بن شيبة "٢٦٢"[١٣٢].

ز-**الأطراف**: وهي "التي يقتصر فيها على ذكر طرف الحديث الدال على بقيته مع الجمع لأسانيده إما على سبيل الاستيعاب أو على جهة التقيد بكتب مخصوصة، ومنها: أطراف الصحيحين لأبي مسعود إبراهيم بن محمد بن عبيد الدمشقي الحافظ، المتوفى ٤٠١هـ، و أطراف الصحيحين لأبي محمد خلف بن محمد بن علي بن حمدون الواسطي، المتوفى سنة ٤٠١هـ، وهو أحسن ترتيبا ورسما وأقل خطأ، وأطراف الكتب الخمسة [البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي] لأبي العباس أحمد بن ثابت بن محمد الطَّرْقي. وأطراف الستة، وهي الخمسة المتقدمة ومعها ابن ماجة، لأبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي. وأطراف الكتب العشرة للحافظ ابن حجر، وهو المسمى:بإتحاف المهرة بأطراف العشرة، وهي [الموطأ ومسند الشافعي ومسند أحمد ومسند الدارمي وصحيح ابن خزيمة ومنتقى ابن الجارود وصحيح ابن حبان، ومستدرك الحاكم ومستخرج أبي عوانة وشرح معاني الآثار وسنن الدارقطني"[١٣٣].

ح-المعاجم: والمعجم: "كل كتاب جمع فيه مؤلفه الحديث مرتبا على أسماء شيوخه، على ترتيب حروف المعجم غالبا، مثل معجمي الطبراني: الأوسط، والصغير"[١٣٤]، "كمعجم الطبراني الكبير، المؤلف في أسماء الصحابة على حروف المعجم ... يقال: أنه أورد فيه ستين ألف حديث في اثني عشر مجلدا، ... وهو أكبر معاجم الدنيا، وإذا أُطلق في كلامهم المعجم فهو المراد ... والمعجم الأوسط، ألفه في أسماء شيوخه وهم قريب من ألفي رجل ... ويقال: أن فيه ثلاثين ألف حديث وهو في ست مجلدات كبار، وكان يقول فيه: هذا الكتاب روحي لأنه تعب فيه ... والمعجم الصغير، وهو في مجلد خرّج فيه عن ألف شيخ، يقتصر فيه غالبا على حديث واحد عن كل واحد من شيوخه"[١٣٥].

ط- التصنيف بأطراف الحديث: وهي التي ترتب الأحاديث حسب أول كلمة من الحديث، فتبدأ بالهمزة ثم الباء وهكذا، ويندرج تحتها نوعان:

أولا: نوع المجامع: حيث يُجمع فيها أحاديث كتب حديثية أخرى على الترتيب الأبجدي.

(١٣٢) الحديث والمحدثون، محمد محمد أبو زهو، ص٣٦٤، ٣٦٥.

(١٣٣) الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المصنفة، محمد بن جعفر الكتاني ص١٦٩ وما بعدها، ط٤، تحقيق: محمد المنتصر الكتاني، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

(١٣٤) تيسير مصطلح الحديث، محمود الطحان، ص٢٠٩.

(١٣٥) الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المصنفة، محمد بن جعفر الكتاني ص١٣٧.

ثانيا: كتب الأحاديث المشتهرة، ومن الأمثلة عليها: المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة للحافظ السخاوي. وكشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني.

ي: **التصانيف الجامعة**: "وهي التي تجمع أحاديث مصادر حديثية متعددة، ولهذا النوع من التصنيف طريقان:

أ-التصنيف على الأبواب، ومن أمثلتها: جامع الأصول من أحاديث الرسول لابن الأثير الجزري، وقد جمع فيه أحاديث الصحيحين والموطأ والسنن الثلاثة، وجردها جميعا من الأسانيد، وكنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للشيخ المحدث علي الهندي، وقد جمع فيه أحاديث ثلاثة وتسعين كتابا حديثيا.

ب-ترتيب الأحاديث ترتيبا أبجديا حسب أول كلمة، وأهمها: الجامع الكبير، والجامع الصغير للسيوطي.

ك: **مصنفات الزوائد**: وفيها يجمع المصنف الأحاديث الزائدة في عدد من مصنفات الحديث، مُعرضا عن الأحاديث المشتركة بينهم، ومن الأمثلة عليها: مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي، وقد جمع فيه ما زاد على الكتب الستة من مسند أحمد ومسند أبي يعلى الموصلي ومسند البزار ومعاجم الطبراني الثلاثة.

ل- **كتب التخريج**: وهي التي تُخَرِّج أحاديث كتاب معين، ومن أمثلتها: نصب الراية لأحاديث الهداية للحافظ الزيلعي، خرّج فيه أحاديث كتاب الهداية للميرغيناني، وهو في الفقه الحنفي. وكتاب المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، تأليف الحافظ العراقي"[١٣٦].

م- **كتب الأجزاء**: و"هي الكتب التي جمع فيها أحاديث شخص واحد"[١٣٧] "من رواة الحديث، أو جَمَع فيه ما يتعلق بموضوع واحد على سبيل الاستقصاء، مثل "جزء رفع اليدين في الصلاة" للبخاري"[١٣٨]، أو الجزء الذي يدرس أسانيد الحديث الواحد ويتكلم عليه"[١٣٩].

ن- **المشيخات**: وهي التي تشتمل على ذكر الشيوخ الذين لقيهم المؤلف وأخذ عنهم أو أجازوه وإن لم يلقهم، ومنها: مشيخة الحافظ أبي يعلى الخليلي، ومشيخة أبي يوسف يعقوب بن سفيان بن جَوَّان الفارسي الفسوي المتوفى سنة ٢٧٧هـ، وهي في ستة أجزاء مرتبة على البلاد. ومشيخة أبي الحسين بن المهدي، ومشيخة أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني، سمعها من خلائق بعدة مدائن جمع فيها الجم الغفير مع فوائد لا تحصى وجملتها يزيد على مائة جزء، ومشيخة القاضي عياض اليحصبي، ذكر فيها مائة ترجمة من تراجم شيوخه وبعض مروياته عنهم"[١٤٠].

---

(١٣٦) منهج النقد في علوم الحديث، نور الدين محمد عتر الحلبي ص٢٠٧ وما بعدها بتصرف.

(١٣٧) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد، ٥٥٩/١، تحقيق: علي دحروج، ط١، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٩٦م.

(١٣٨) تيسير مصطلح الحديث، محمود الطحان، ص٢٠٩.

(١٣٩) منهج النقد في علوم الحديث، نور الدين محمد عتر الحلبي ص ٢٠٩.

(١٤٠) الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المصنفة، محمد بن جعفر الكتاني ص١٤١ وما بعدها.

س- كتب العلل: "وهي الكتب التي تقف على الأسباب الغامضة الخفية في الحديث مع أن الظاهر السلامة منه، وهي التي تجمع الأحاديث التي بها علل، ثم بيان هذه العلل، ككتاب العلل للبخاري ولمسلم وللترمذي"[(١٤١)].

هذه تطوافة سريعة لطرق التصنيف التي خدم بها العلماء سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن العجب العجاب حينما ترى أن من المستشرقين من يرى هذا التفنن في طرق التصنيف اضطرابا وعدم ثبات على طريقة واحدة في التصنيف، وبعضهم يمرّ عليها مرورا سريعا، كما فعل روبسون، وبعضهم يتجاهلها عمدا، ولا يُلقي لها بالا، وهي من مفاخر الإسلام بل والإنسانية في حفظ الأصول، وتسهيل طرق تناولها والحفاظ عليها.

(١٤١) الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المصنفة، محمد بن جعفر الكتاني ص١٤٧.

المبحث الثاني: الرؤية الاستشراقية لكون السنة مصدرا للتشريع

المطلب الأول: شبهة أن مصدرية السنة للتشريع أمرٌ عارض:

يقول روبسون:

At that time there was no idea that tradition was second in authority to the Ur'an because there was no collected body of traditions. At the prophet's death, the Kur'an remained as the source of guidance and it was only gradually, as new problems arose, that men came to feel the need of a subsidiary authority.

ترجمة النص: "وفي ذلك الوقت، لم تكن هناك فكرة عن الحديث أنه الثاني من حيث المرجعية بالنسبة للقرآن الكريم، لأنه لم يكن هناك جسم مجموع للأحاديث. وعند وفاة النبي بقي القرآن الكريم مصدرا للتوجيه و الهداية، وبرزت مشكلاتٌ جديدة بالتدريج حتى بدأ الناس يشعرون بالحاجة إلى مصدر إضافي مساعد".

عند الوقوف على هذا النص، تستبين بجلاء إحدى منهجيات الاستشراق المغرض، التي تتجاهل الحقائق الأساسية المستقاة من القرآن الكريم، وتتجاهل في عماء جافٍ حقيقة موقع الحديث في زمن النبوة الشريف، وتجترئ على الادعاء المبني على الظن وما تهوى الأنفس، ولا ريب أنه لا يُرتجى عدلٌ وإنصاف من وراء تلك المنهجية.

وبتحليل هذا النص يتضح اشتماله على شبهتين:

الأولى: عدم وجود جسم مجموع للأحاديث، ويتخذ من ذلك ذريعة لرفض كون السنة مصدرا للتشريع.

الثانية: الادعاء أن مصدرية السنة أمر عارض، استجد بعد عصر النبوة.

الرد على الشبهة الأولى: عدم وجود جسم مجموع للأحاديث:

إن قول "روبسون": لم يكن هناك جسم مجموع للأحاديث"، فهو قول عجيب، وهو يسوقه كدليل على كون السنة كمصدر للتشريع أمرٌ مستحدث، وواضح أنه لا موائمة بين دليله وما يريد أن يستدل عليه.

وهل عدم جمع السنة في كتاب واحد، دليل على كونها ليست مصدرا للتشريع؟!

لقد كانت السنة محفوظة في صدور الصحابة، وراسخة في أذهانهم، لا سيما وقد ارتبطت عندهم بأحداث عاشوها. وترقبوا بكل شغف واهتمام حُكْمَ رسول الله ﷺ في كل حادثة وواقعة جديدة، حتى إذا صدر الحكم من الرسول ﷺ أصبح موضوع الصحابة في مساجدهم، وبيوتهم، ومنتدياتهم، ومجالسهم، وصار معلوماً للجميع.

وعلى الرغم من أن السنة النبوية في عصر النبوة الشريف، وعصر الخلفاء الراشدين كانت محفوظة في صدور الرجال، ومنها ما كان مدونا في كتب وصحف خاصة – كما سبقت الإشارة إلى ذلك، إلا أنه استجدت دواعٍ جعلت جمع السنة وتدوينها تدوينا عاما أمرا ضروريا، لا بد منه لحفظ دين الله تعالى.

فلقد تفرق أصحاب رسول الله ﷺ بعد وفاته في أرجاء العالم الإسلامي، وخلفت خلوفٌ ليسوا كأصحاب رسول الله ﷺ في الحرص على طلب العلم، وبرزت قرون الفتن من مدّعي الإسلام من اليهود والنصارى والمجوس، والذين كانوا مصدرا من مصادر التقول على رسول الله ﷺ ونشر الأكاذيب عليه، واتسعت رقعة العالم الإسلامي اتساعا مذهلا، فقد أصبح العالم إما مسلما وإما يخضع للمسلمين.

كل تلك دواعٍ جعلت تدوين السنة وجمعها ضرورة مُلحة لحفظها من الضياع(١٤٢).

الرد على الادعاء بأن مصدرية السنة أمر عارض، استجد بعد عصر النبوة:

الحق الذي لا مرية فيه أنه إذا وقفنا على أهمية السنة المطهرة في حياة هذه الأمة، وظهر لنا اهتمام الصحابة رضوان الله عليهم بها، دل ذلك على حضورها الفاعل المؤثر في حياة المسلمين عصر النبوة الشريف، وأنه لا يتصور عاقل تأخر فهم المسلمين لأهميتها ومكانتها ومصدريتها إلى ما بعد عصر الخلفاء الراشدين، وفيما يلي تفصيل هذا المعنى:

أولا: ظهور مصطلح (الحديث) في عصر النبوة:

لم يكن مصطلح الحديث ابتداعا ظهر بعد زمن النبوة الشريف، وإنما كان معلوما واضحا في النصوص الشرعية.

ففي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قيل يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك، لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة، من قال لا إله إلا الله ، خالصا من قلبه، أو نفسه"(١٤٣).

هذا حوار بين النبي ﷺ وبين أبي هريرة، يتضح منه بروز مصطلح الحديث واضحا جليا، ومن ثَمَّ فإن زعْم "روبسون" أن لفظ الحديث دعت إليه ضرورة اجتماعية، زعمٌ يُجافي أبسط المعارف عن الإسلام.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما كان أحد أعلم بحديث رسول الله ﷺ مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب بيده، ويعيه بقلبه، وكنت أعيه بقلبي، ولا أكتب بيدي، واستأذن رسول الله ﷺ في الكتاب عنه، فأذن له"(١٤٤).

---

(١٤٢) سيأتي مزيد في هذه النقطة في المطلب الأول من المبحث الثالث.

(١٤٣) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، حديث رقم ٩٩.

(١٤٤) مسند أحمد، ومن مسند بني هاشم، مسند أبي هريرة ﷺ، حديث رقم٩٢٣١. وقال محققه الشيخ شعيب الأرناؤوط: صحيح، وهذا إسناد حسن، محمد بن إسحاق وعمرو بن شعيب صدوقان، وباقي رجال الإسناد ثقات، مسند أحمد ١٥/هامش ١ ص١٢٧، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، بإشراف د.عبد الله بن عبد المحسن التركي. ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

وهذا الحديث واضح في الدلالة على:

١-أن الحديث كمصدر للتشريع كان معلوما في زمن النبوة الشريف.

٢-أن عناية الصحابة بحديث النبي ﷺ بلغت الغاية.

٣- اهتمام الصحابة بحديث النبي ﷺ، وتفاوت جهودهم وأدواتهم في الاهتمام به.

ثانيا: مكانة الحديث النبوي الشريف في الإسلام:

القرآن الكريم وحي الله باللفظ والمعنى، والسنة النبوية المطهرة وحي الله بلفظ نبيه ﷺ تبين مجمل القرآن، وتخصص عامه، وتقيد مطلقه، وتجسد أخلاق القرآن في شخص النبي ﷺ، ويتضح ذلك من خلال ما يلي:

المسألة الأولى: الحديث النبوي مبين للقرآن الكريم:

قال الله تعالى: "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"(١٤٥).

يقول ابن أبي حاتم: "فكان رسول الله ﷺ هو المبين عن الله عز وجل أمره، وعن كتابه معاني ما خوطب به الناس، وما أراد الله عز وجل به وعنى فيه، وما شرع من معاني دينه وأحكامه وفرائضه وموجباته وآدابه ومندوبه وسننه التى سنها، وأحكامه التى حكم بها وآثاره التى بثها ... فثبَّت عليه السلام حجة الله عز وجل على خلقه بما أدى عنه وبين، وما دل عليه من محكم كتابه ومتشابهه، وخاصه وعامه، وناسخه ومنسوخه، وما بشر وأنذر"(١٤٦).

وثمّ شواهد على أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يرجعون إلى رسول الله ﷺ فيما أشكل فهمه من كتاب الله.

ففي الصحيح عن عبد الله بن مسعود ؓ قال: لما نزلت (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)، قلنا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: "ليس كما تقولون (وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ): بشرك، أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه (يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)(١٤٧).

وعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) (١٤٨) قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم، (أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) (١٤٩).(١٥٠)،

---

(١٤٥) سورة النحل: ٤٤.

(١٤٦) الجرح والتعديل ٢/١، ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٢٧١هـ، ١٩٥٢م.

(١٤٧) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى : واتخذ الله إبراهيم خليلا – حديث رقم ٣٣٦٠.

(١٤٨) سورة المؤمنون: ٦٠.

(١٤٩) سورة المؤمنون: ٦١.

(١٥٠) سنن الترمذي الجامع الصحيح ، الذبائح أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ ، باب: ومن سورة المؤمنون، حديث رقم ٣١٧٥. وصححه الشيخ الألباني في صحيح سنن الترمذي، حديث رقم ٣١٧٥.

فإشكاليات الفهم لبعض آيات القرآن الكريم كان رسول الله مرجع الصحابة في فهمها، وتوضيح المراد منها، وإزالة اللبس عنها.

وليعلم الناس أن لهؤلاء الذين يرفعون عقيرتهم بالاكتفاء بالقرآن عن السنة سلفا طالحا، وأنهم ليسوا بدعا فيما افتروه.

وعن عمران بن حصين ﷺ: أن رجلا أتاه فسأله عن شيء، فحدثه، فقال الرجل: حدثوا عن كتاب الله، ولا تحدثوا عن غيره، فقال: إنك امرؤ أحمق، أتجد في كتاب الله، أن صلاة الظهر أربع لا يجهر فيها؟ – وعدَّ الصلوات، وعد الزكاة ونحوها، ثم قال: أتجد هذا مفسرا في كتاب الله؟ إن كتاب الله قد أحكم ذلك، والسنة تفسر ذلك"[١٥١].

وهذا الموقف من الصحابي الجليل عمران بن حصين يوضح بجلاء فهم الصحابة رضوان الله عليهم لموقع السنة النبوية من دين الله تعالى، فهناك القرآن الكريم، ومعه السنة النبوية المطهرة موضحة ومبينة ومفسرة.

المسألة الثانية: رسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة:

وكون النبي صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، أمر لا مراء فيه، فلقد كان المثل الأعلى والقدوة الصالحة للصحابة رضوان الله عليهم، يتحرون التأسي به في كل ما يصدر عنه في مسائل الإيمان والعبادات والمعاملات والأخلاق، وفي أدق تفصيلات حياته، كزوج وأب وجد وجار وغير ذلك، وهو في ذلك كله مصدر للتشريع.

يقول الله تعالى: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا "[١٥٢].

وهذا نص قاطع الدلالة في بيان مفهوم السنة، فليس كلام النبي ﷺ فقط هو منار التشريع والتوجيه والقدوة، بل إن رسول الله ﷺ كله مصدرٌ للقدوة، قوله وفعله وجميع أحواله.

ويترتب على ذلك، وجوب اتباعه، والتأسي به، قوله تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[١٥٣]، وقوله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)[١٥٤].

المسألة الثالثة: السنة النبوية مصدر للتشريع:

هذا أمر معلوم بالضرورة من التشريع الإسلامي.

فعن المقدام بن معدي كرب الكندي، قال: ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل ينثني شبعاناً على أريكته يقول: عليكم بالقرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم لحم

---

(١٥١) الفقيه والمتفقه، البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب ٢٣٧/١. تحقيق: عادل بن يوسف الغرازي. ط٢، الرياض: دار ابن الجوزي، ١٤٢١هـ.

(١٥٢) سورة الأحزاب: ٢١.

(١٥٣) سورة آل عمران ـ آية: ٣١.

(١٥٤) سورة الحشر ـ آية: ٧.

الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ألا ولا لقطة من مال معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم، فعليهم أن يُقْروهم، فإن لم يُقْروهم، فلهم أن يعقبوهم بمثل قِراهم"[١٥٥].

حرص الصحابة على طلب الحديث:

تظهر مكانة السنة ومصدريتها في الإسلام من حرص الصحابة -رضوان الله عليهم- عليها طلبا وتعلما وتطبيقا، ويتضح ذلك من خلال ما يلي:

أ- تناوب الصحابة رضوان الله عليهم في طلب الحديث:

الإسلام منهج حياة، لم يقطع الصحابة رضوان الله عليهم عن طلب المعاش، بل الإسلام ذاته يدعو إلى إعمار الحياة، والسعي في الأرض، والتوسعة على النفس والأهل والعيال، وثمّة بدائل يمكن من خلالها للصحابي أن يعرف ما نزل من القرآن، وما صدر من النبي ﷺ من أقوال وأفعال وتقريرات، وغير ذلك من أحواله ﷺ، فهو ﷺ القدوة في كل شؤون الحياة.

ومن هذه البدائل سؤال الصحابة بعضهم بعضا، أو تناوبهم في طلب العلم، أو إخبارهم لإخوانهم بما غابوا عنه من مجالسه ﷺ.

فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن عمر ﵁ قال : كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوما وأنزل يوما، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك..."[١٥٦].

ب- الرحلة طلبا الحديث:

ومن صور الاهتمام البليغ بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ترحل الصحابة رضوان الله عليهم في طلبها الأشهر سفرا. ففي المسند عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ فاشتريت بعيرا، ثم شددت عليه رحلي، فسرت إليه شهرا، حتى قدمت عليه الشام فإذا عبد الله بن أنيس، فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب، فقال ابن عبد الله؟ قلت: نعم ، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني، واعتنقته، فقلت: حديثا بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت، أو أموت قبل أن أسمعه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يحشر الناس يوم القيامة – أو قال: العباد – عراة غرلا بهما" قال: قلنا: وما بهما؟ قال: ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان، ولا ينبغي لأحد من أهل النار، أن

---

(١٥٥) مسند أحمد بن حنبل، مسند الشاميين، حديث المقداد بن معدي كرب الكندي، أبي كريمة، حديث رقم١٧١٧٤، وقال محققه الشيخ شعيب الأرناؤوط وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ٢٦٤٣.

(١٥٦) صحيح البخاري ،كتاب العلم ، باب التناوب في العلم – حديث رقم ٨٩.

يدخل النار، وله عند أحد من أهل الجنة حق، حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولأحد من أهل النار عنده حق، حتى أقصه منه، حتى اللطمة" قال: قلنا: كيف وإنا إنما نأتي الله عز وجل عراة غرلا بهما؟ قال: بالحسنات والسيئات"(١٥٧).

وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن بريدة ، أن رجلا من أصحاب النبي ﷺ رحل إلى فضالة بن عبيد وهو بمصر، فقدم عليه، فقال: أما إني لم آتك زائرا، ولكني سمعت أنا وأنت حديثا من رسول الله ﷺ رجوت أن يكون عندك منه علم، قال: وما هو؟ قال: كذا وكذا، قال: فما لي أراك شعثا وأنت أمير الأرض؟ قال: إن رسول الله ﷺ كان ينهانا عن كثير من الإرفاه، قال: فما لي لا أرى عليك حذاء؟ قال: كان النبي ﷺ يأمرنا أن نحتفي أحيانا"(١٥٨).

أوليس هذا النَّصَب وكدّ الرواحل في الصحاري في الحر والقر دليلا على أن الأمر ليس ترفا فكريا، بل دين لا تُتصور الغفلة عنه أو التفريط فيه؟! يسافر الصحابي عشرات المئات من الأميال طلبا لحديث واحد، فهل علمت الإنسانية حرصا على طلب العلم كهذا؟! وهل هناك دليل أقوى في الدلالة على مكانة الحديث عند الصحابة من هذا؟!

المسألة الرابعة: السنة النبوية مرجعية القضاء في زمن الصحابة رضوان الله عنهم:

في ضوء ما سبق، من الطبيعي أن تكون السنة مع القرآن الكريم مرجعا للقضاء، فهما مصدر التشريع كما هما مصدر التربية والتوجيه.

ففي المسند عن قبيصة بن ذؤيب، قال: جاءت الجدة إلى أبي بكر تسأله ميراثها، فقال: ما أعلم لك في كتاب الله شيئا، ولا أعلم لك في سنة رسول الله ﷺ من شيء، حتى أسأل الناس، فسأل فقال المغيرة بن شعبة: سمعت رسول الله ﷺ جعل لها السدس"، فقال: من يشهد معك؟ أو من يعلم معك؟ فقام محمد بن مسلمة فقال: مثل ذلك، فأنفذه لها"(١٥٩).

وهذا الحديث يشير إلى:

١- أن السنة مصدر للتشريع عند الصحابة رضوان الله عليهم، فلقد قال أبو بكر للجدة أنه لا يعلم لها شيئا في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ، فأنظرها حتى يسأل الصحابة؛ فلعل عند أحدهم ما لا يعلمه؛ فلما شهد المغيرة ومعه محمد بن مسلمة رضي الله عنهما أن رسول الله جعل لها السدس؛ قضى به للجدة.

٢-في الحديث دلالة على أن السنة النبوية تستقل بالتشريع.

---

(١٥٧) مسند أحمد بن حنبل ، مسند المكيين، حديث عبد الله بن أنيس – حديث رقم ١٦٠٤٢. وقال محققه: إسناده حسن.

(١٥٨) سنن أبي داود، كتاب الترجل، حديث رقم ٤١٦٠. وصححه الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(١٥٩) مسند أحمد بن حنبل ، مسند الشاميين، حديث محمد بن مسلمة الأنصاري ، حديث:١٧٩٨٠. وقال محققه الشيخ شعيب الأرناؤوط: والحديث صحيح بشواهده.

المطلب الثاني: خداع المصطلحات من مناهج الاستشراق المغرض:

يقول روبسون:

as a result of the genius of al-shafi'I, the party of tradition won the day, and fladith came to be recognized as a foundation of Islam second only to the Kur'an. Al-Shafi'i laid emphasis on an argument which seems to have been current even before this time, that when the Quran spoke of the book and the wisdom, it meant Kur'an and Alhadith. thus Alhadith was given a kind of secondary inspiration. though not the eternal word of God, like tha Kur'an it represente divine guidance(160).

وترجمة النص: "وكنتيجة لعبقرية الشافعي؛ فاز فريق الحديث في ذلك الوقت، وجاء الحديث ليُعْرَفَ بالأساس الثاني للإسلام بعد القرآن الكريم. لقد أقام الشافعي الحُجَّةَ التي يَبدو أنها أصبحت سائدةً حتى قبل هذا الزمن، وذلك عندما تحدّث القرآن عن الكتاب والحكمة، كان يعني القرآن والسنة، وهكذا أعُطِيَ الحديثُ نوعاً من الإلهام الفرعي. ومع ذلك لم يكن الحديث كلمة الله الأبدية، كما هو حال القرآن الذي يمثل الهداية الإلهية".

إن "روبسون" ومثله "جوزيف شاخت" وغيرهم يجافون الحق والموضوعية، ويتجاهلون حقائق التاريخ ودلالات النصوص، ويرددون دون ملل القول بعبقرية الإمام الشافعي الذي كان السبب في إثبات حجية السنة كمصدر للتشريع، وكأن السنة طوال هذه الفترة لم تكن كذلك عند المسلمين، حتى جاء الشافعي فانتصر لأصحاب هذا المذهب!!! ولقد سبق معنا ما يُدلل على وضوح حجية السنة وموقعها من الدين زمنَ النبي ﷺ.

وهو يقصد هنا تفسير الإمام الشافعي لقوله تعالى: (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ)(١٦١).

قال الإمام الشافعي: فذكر الله الكتاب، وهو القُرَآن، وذكر الحِكْمَة، فسمعتُ مَنْ أرْضى من أهل العلم بالقُرَآن يقول: الحكمة سنة رسول الله؛ لأن القُرَآن ذُكر وأُتْبِعَتْه الحكمة، وذَكَرَ الله مَنَّه على خَلْقه بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يَجُزْ - والله أعلم - أن يقال الحكمة هاهنا إلا سنةُ رسول الله؛ وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله، وأن الله افترض طاعة رسوله، وحتَّم على الناس اتباع أمره" (١٦٢).

---

(١٦٠) The Encyclopaedia of Islam (new edition) vol.3 p.٢٤

(١٦١) سورة الأحزاب الآية ٣٤

(١٦٢) الرسالة، الشافعي، محمد بن إدريس ص٣٥، تحقيق: رفعت فوزي عبد المطلب. ط١، المنصورة: دار الوفاء، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

وكأن هذا المعنى – الذي نسبه الإمام الشافعي إلى مشايخه– كان غامضا عن الصحابة وتابعيهم حتى اكتشفه الإمام الشافعي!!!

اختلاق المصطلحات ثم التحاكم إليها:

ومن منهجيات الاستشراق المغرض، أن يختلق قواعد ومصطلحات ثم يُحاكم بناء عليها.

فاختلق "روبسون" مصطلح "الإلهام الفرعي" وكأنه يحاول بكل سبيل أن ينفي حجية السنة، وكونها مصدرا للتشريع، على الرغم من الشواهد والبينات على أنها صنو القرآن الكريم في كونها وحيا، لكنها بلفظه صلى الله عليه وسلم، وأنها تؤكد ما في القرآن، وتفسر وتوضح مجمله ومبهمه، وتستقل كذلك بالتشريع.

فماذا يقصد "روبسون بالإلهام الفرعي؟! إننا لا نعرف من ديننا إلا صورا للوحي محددة، وهي:

أ–الرؤيا الصالحة: ففي الصحيح عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح"[١٦٣].

ب–الصوت الشديد: ففي الصحيح أيضا عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أن الحارث بن هشام ﷺ سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا، فيكلمني فأعي ما يقول" قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا"[١٦٤].

ج: النفث في الروع: فعن حذيفة ﷺ قال: قام النبي ﷺ فدعا الناس، فقال: هلموا إلي، فأقبلوا إليه فجلسوا فقال: هذا رسول رب العالمين جبريل نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، وإن أبطأ عليها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تأخذوه بمعصية الله، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته"[١٦٥].

أما مصطلح الإلهام الفرعي، فشيء تفضل علينا به "روبسون" بعد أربعة عشر قرنا من ظهور الإسلام!!! وإنما أراد باختراعه لهذا المصطلح، أن يعارض ما اتفقت عليه الأمةُ الإسلامية، مِن أن السنة النبوية تنزيل ووحي كالقرآن الكريم، وأنها معه المصدران الرئيسان للإسلام. وكلها وحي من الله تعالى، ولها دلالتها وحجيتها، فما الذي يقصده "روبسون" بمصطلح الإلهام الفرعي؟

---

(١٦٣) صحيح البخاري، باب بدء الوحي، بسم الله الرحمن الرحيم قال الشيخ، حديث رقم ٣.

(١٦٤) صحيح البخاري، باب بدء الوحي حديث رقم ٢.

(١٦٥) البحر الزخار مسند البزار، عاصم عن زر عن حذيفة، حديث رقم ٢٩١٤. وقال الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن صحيح. حديث رقم ١٧٠٢.

إن الرجل يُبدئ ويُعيد حول نقطة رئيسة واحدة، وهي محاولة نزع القداسة عن السنة باعتبارها وحيا من الله تعالى، والانطلاق من هذا إلى كونها شيئا دعت إليه الضرورة الاجتماعية.

ولعل الدليل الدامغ والحجة القاطعة قوله ﷺ -: "أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ..."[١٦٦].

فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُمَا قَالاَ: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الأَعْرَابِ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْشُدُكَ اللَّهَ إِلَّا قَضَيْتَ لِي بِكِتَابِ اللَّهِ، فَقَالَ الخَصْمُ الآخَرُ: وَهُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، نَعَمْ، فَاقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَأْذَنْ لِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قُلْ. قَالَ: إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا[١٦٧] عَلَى هَذَا فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ، وَإِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّ عَلَى ابْنِي الرَّجْمَ، فَافْتَدَيْتُ مِنْهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَوَلِيدَةٍ فَسَأَلْتُ أَهْلَ العِلْمِ فَأَخْبَرُونِي أَنَّمَا عَلَى ابْنِي جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ وَأَنَّ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا الرَّجْمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ: الوَلِيدَةُ وَالغَنَمُ رَدٌّ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ، اغْدُ يَا أُنَيْسُ إِلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا"، قَالَ: فَغَدَا عَلَيْهَا فَاعْتَرَفَتْ فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرُجِمَتْ"[١٦٨].

إن رجم المحصن ليس في كتاب الله تعالى، وإنما هو حكم شرعي ثبت من سنته صلى الله عليه وسلم.

وثبت في وعي الصحابة رضوان الله عليهم أن الحكم الثابت بالسنة هو ثابت بالقرآن، الذي أمر بوجوب طاعته صلى الله عليه وسلم واتباعه.

فعن ابن مسعود ﷺ قال: "لعن عبد الله، الواشمات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله» فقالت أم يعقوب: ما هذا؟ قال عبد الله: «وما لي لا ألعن من لعن رسول الله، وفي كتاب الله؟» قالت: والله لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدته، قال: " والله لئن قرأتيه لقد وجدتيه: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)[١٦٩]...[١٧٠].

---

(١٦٦) أخرجه أبو داود في كتاب السنة . باب في لزوم السنة ٤/ ٢٠٠. وابن حبان في صحيحه ١/١٨٩ (١٢) . والدارقطني في سننه ٥/٥١٧ (٤٧٦٨) . والطبراني في المعجم الكبير ٢٠/٢٨٣ (٦٦٩، ٦٧٠) عن المقدام بن معدي كرب

(١٦٧) عسيف هو الأجير، وجمعه عُسفاء. النهاية في غريب الحديث والأثر، الجزري، المبارك بن محمد ٣/٤٦٨. تحقيق: طاهر الزاوي، محمود الطناحي. دط، بيروت: المكتبة العلمية، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

(١٦٨) أخرجه البخاري في مواضع كثيرة من صحيحه منها: كتاب الشروط . باب الشروط التي لا تحل في الحدود، حديث رقم (٢٧٢٤). وأخرجه مسلم في صحيحه .كتاب الحدود . باب من اعترف على نفسه بالزنا، حديث رقم (١٦٩٧).

(١٦٩) سورة الحشر . آية: ٧

(١٧٠) صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب المتنمصات، حديث رقم ٥٩٣٩.

وكون ما ثبت بالسنة ثابتا بالقرآن أمر معلوم لدى الصحابة والتابعين وتابعيهم من سلف هذه الأمة.

فهذا الإمام الشافعي، كان جالساً في المسجد الحرام فقال: لا تسألوني عن شيء إلا أجبتكم فيه من كتاب الله تعالى. فقال رجل: ما تقول في المحرم إذا قتل الزنبور؟ فقال: لا شيء عليه. فقال: أين هذا في كتاب الله؟ فقال: قال الله تعالى: "وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ"(١٧١).

ثم ذكر إسناداً إلى النبي ﷺ أنه قال: "عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي"(١٧٢)، ثم ذكر إسناداً إلى عمر رضي الله عنه أنه قال: للمحرم قتل الزنبور.(١٧٣).

قال الإمام الشافعي: فكل من قَبِلَ عن الله فرائضه في كتابه، قَبِلَ عن رسول الله سننه بفرْض الله طاعةَ رسوله على خلقه، وأن ينتهوا إلى حكمه، ومن قَبِلَ عن رسول الله، فمن الله قَبِلَ؛ لِمَا افترض الله من طاعته" (١٧٤).

وقال الإمام الشافعي أيضا: "وسُنَنُ رسول الله مع كتاب الله وجهان: أَحَدُهما: نص كتاب فَاتَّبَعَه رسول الله كما أنزل الله، والآخر: جملة بَيَّنَ رسول الله فيه عن الله معنى ما أراد بالجملة، وأوضح كيف فرَضَها عامَّاً أو خاصاً، وكيف أراد أن يأتي به العباد، وكلاهما اتبع فيه كتاب الله.

قال: فلم أعلم من أهل العلم مخالفاً في أن سُنن النبي من ثلاثة وجوه، فاجتمعوا منها على وجهين.

والوجهان يجْتَمِعان ويتفرَّعان: **أحدهما**: ما أنزل الله فيه نص كتاب، فبَيَّنَ رسول الله مثلَ ما نصَّ الكتاب، **والآخر**: مما أنزل الله فيه جملةَ كتاب، فبيَّن عن الله معنى ما أراد؛ وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما.

والوجه الثالث: ما سنَّ رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب.

فمنهم من قال: جعل الله له بما افترض من طاعته، وسبق في علمه من توفيقه لرضاه، أن يَسُنَّ فيما ليس فيه نص كتاب.

ومنهم من قال: لم يسن سنة قط إلا ولها أصل في الكتاب، كما كانت سُنَّته لتبيين عدد الصلاة وعملها، على أصل جملة فرض الصلاة،، وكذلك ما سنَّ من البُيُوع وغيرها من الشرائع، لأن الله قال: (لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) (١٧٥)"، وقال: (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا)(١٧٦)، فما أحلَّ وحرَّم فإنما بيَّن فيه عن الله كما بَيَّن الصلاة.

---

(١٧١) سورة الحشر الآية ٧

(١٧٢) سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة ٤/ ٢٠٠ ،حديث رقم .

(١٧٣) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، ١٢/ ٥٢٧، ط٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.

(١٧٤) الرسالة للشافعي ص ١٣ ، تحقيق: رفعت عبد المطلب، ط١، المنصورة مصر: دار الوفاء، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

(١٧٥) سورة النساء الآية ٢٩.

(١٧٦) سورة البقرة الآية ٢٧٥.

ومنهم من قال: بل جاءته به رسالةُ الله فأثبتتْ سنَّتَه.

ومنهم من قال: أُلْقِيَ في رُوعه كلُّ ما سَنَّ، وسنَّتُه: الحكمةُ التي أُلقيت في رُوعه عن الله، فكان مما ألقَى في روعه: سنَّتَه، وهي: الحكمة التي ذكَرَ اللهُ، وما نزَل به عليه كتابٌ، فهو كتاب الله، وكلٌّ جاءه من نِعَمِ الله، كما أراد الله، وكما جاءته النِّعَم، تَجْمعها النعمة، وتَتَفَرَّقُ بأنها في أمورٍ بعضُها غيرُ بعض، ونسأل الله العصمة والتوفيق.

وأيُّ هذا كان، فقد بيَّن الله أنه فرَضَ فيه طاعة رسوله، ولم يجعل لأحد من خلقه عذراً، بخلاف أمرٍ عرَفَه من أمر رسول الله، وأنْ قد جعل الله بالناس الحاجةَ إليه في دينهم، وأقام عليهم حجتَه بما دلَّهم عليه من سنن رسول الله مَعَانيَ ما أراد الله بفرائضه في كتابه، ليعلم مَن عرَف منها ما وصَفْنا أن سنته ﷺ إذا كانت سنة مبيِّنة عن الله معنى ما أراد من مَفْروضه فيما فيه كتابٌ يتْلونَه، وفيما ليس فيه نصُّ كتاب أخْرَى، فهي كذلك أيْنَ كانت، لا يختلف حكمُ الله ثم حكمُ رسوله، بل هو لازم بكلِّ حال[١٧٧].

وأقول: ستظل خطيئة الاستشراق المغرض في التألي على مواريث الأمم والشعوب، والاستعلاء الفكري الذي يستبد على الناس في أديانهم ومواريثهم الثقافية، منطلقا من فوقية كاذبة خاطئة، متذرعا بعلمية زائفة، لا حظ لها ولا نصيب في المنهج العلمي الموضوعي.

---

(١٧٧) الرسالة للشافعي ص٤١: ٤٣.

المبحث الثالث: شبهة عدم اهتمام طائفة من الصحابة بالسنة النبوية

المطلب الأول: الزعم بوجود طائفة من الصحابة غير مهتمة بالحديث.

يقول روبسون:

But while traditionsist were collecting traditions and attempting to verify their authority, there were others who were not prepared to lay great emphasis on the importance of tradtion. As a result there were disputes between parties.(178)

ترجمة النص: "ولكن بينما كان رواةُ الحديث يجمعون الأحاديث ويحاولون تأكيد الرواية، كان هناك آخرون غير مهيئين للتركيز على أهمية الحديث. ونتيجةً لذلك كانت هناك نزاعات بين الأطراف"

بنى "روبسون" شبهته هذه على أساس أن بعض الصحابة لم يكونوا يروون الحديث، وقد سبق معنا تحرج بعض الصحابة من الرواية مبالغة في الخوف من الكذب على رسول الله ﷺ وسلف الحديث عن الدافع لهؤلاء الصحابة، علما بأنهم لم يكونوا عددا كبيرا، وقد شجعهم على ذلك يقينهم بأن إخوانهم يكفونهم البلاغ عن رسول الله ﷺ.

ومع هذا فإن إعراضهم عن الرواية لا يعني إهمالهم لسنة النبي ﷺ، كيف وهم يعيشون بها، يفهمون في ضوئها كلام الله، ويبيعون ويشترون ويتعاملون في هديها؟!

إن ما كان من قلة أو إعراض بعض الصحابة عن الرواية؛ إنما كان لانشغالهم في الجهاد، أو بالقرآن الكريم، كما سلف من قبل، أو لشدة تحرزهم وخوفهم من وعيد رسول الله ﷺ لمن كذب عليه.

فعن عمرو بن ميمون قال: اختلفت إلى عبد الله بن مسعود سنة، ما سمعته يُحدث فيها عن رسول الله ﷺ، ولا يقول فيها: قال رسول الله ﷺ، إلا أنه حدث ذات يوم بحديث، فجرى على لسانه: قال رسول الله ﷺ، فعلاه الكرب حتى رأيت العرق يتحدر عن جبهته، ثم قال: إن شاء الله، إما فوق ذاك، وإما قريب من ذاك، وإما دون ذاك"(١٧٩).

إن اجتراء هذا المستشرق في الادعاء بأن بعض الصحابة لم يهتموا بالحديث، هو تشويه متعمد، وتركٌ للسواد الأعظم من الصحابة، بفعل البعض، وهم معذورون فيما ذهبوا إليه، لانشغالهم بالجهاد، أو التجارة، أو لحذرهم البالغ من القول على رسول الله بغير علم، مع يقينهم بأن إخوانهم يكفونهم هذا الواجب، واجب نقل السنة النبوية وتعليمها

---

(١٧٨) The Encyclopaedia of Islam (new edition) vol.3 p.٢٤

(١٧٩) الطبقات الكبرى، ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري البصري ١٥٦/٤، تحقيق: إحسان عباس. ط١، بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م. وانظر أيضا: المعجم الكبير للطبراني ١٢١/٩، حديث رقم ٨٦١٢، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي. ط٢، القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

الناس، ولو ظنوا أنها تضيع أو تُهمل؛ لقاموا لها رواية وتعليما، كشأن السواد الأعظم، الذين نقلوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما سمعوا وشهدوا، أو سمعوه من إخوانهم.

و"روبسون" وغيره ينطلقون في شبهتهم هذه من مسألة عدم تدوين السنة في عصر النبوة والخلافة الراشدة.

لماذا لم يُدون الحديث تدوينا جامعا في عصر النبوة والخلافة الراشدة؟:

كان لهذا أسباب منها:

١-لئلا ينشغل الناس بشيء مكتوب غير القرآن: خوف أن يلتبس القرآن بالسنة.

فعن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب ﷺ أراد أن يكتب السنن، فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله، ﷺ فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا، ثم أصبح يوما وقد عزم الله له، فقال: إني كنت أردت أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوما كانوا قبلكم، كتبوا كتبا، فأكبوا عليها، وتركوا كتاب الله تعالى، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدا"[١٨٠].

وعدم كتابتها وجمعها جمعا عاما لا يتنافى مع كونها كانت محفوظة في صدور آلاف الصحابة رضوان الله عليهم، وقد سلف بيان هذا بالتفصيل.

وقد يكون الدافع وراء هذا الموقف من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، ما حدث له مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب، أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال: أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا، ما وسعه إلا أن يتبعني"[١٨١].

ولذلك "لما بلغه أنه قد ظهر في أيدي الناس كتب فاستنكرها وكرهها، وقال: أيها الناس إنه قد بلغني أنه قد ظهرت في أيديكم كتب فأحبها إلى الله أعدلها وأقومها، فلا يبقين أحد عنده كتاب إلا أتاني به، فأرى فيه رأيي" قال: فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ويقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف، فأتوه بكتبهم فأحرقها بالنار، ثم قال: أمنية كأمنية أهل الكتاب؟[١٨٢].

---

(١٨٠) تقييد العلم، الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت ص٤٩، تحقيق: يوسف العش. ط٢، القاهرة: دار إحياء السنة، ١٩٧٤م.

(١٨١) مسند أحمد بن حنبل، ومن مسند بني هاشم، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، حديث: رقم١٥١٥٦. وحسنه الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح، حديث رقم ١٧٧.

(١٨٢) المرجع السابق ص٥٢.

فخشي ﷺ أن يصير في الأمة ما صار في أهل الكتاب "حيث نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، واتبعوا رهبانهم وأحبارهم"(١٨٣).

وهو اجتهاد منه رضي الله عنه يؤجر عليه، مع أنه رضي الله عنه كان يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقضي بما علمه وبلغه عنه صلى الله عليه وسلم. فعدم التدوين لا يعني إهمال السنة.

٢-اعتقاد بعض الصحابة أن النهي عن الكتابة عام:

ولعل من هؤلاء الصحابي الجليل زيد بن ثابت ﷺ، فقد ندرت روايته للحديث، ومع هذا فلم يمنعه ذلك من التصويب وبيان الحق للمخطئ.

فعن عبد الله بن هبيرة، قال: سمعت قبيصة بن ذؤيب، يقول: إن عائشة أخبرت آل الزبير أن رسول الله ﷺ صلى عندها ركعتين بعد العصر، فكانوا يصلونها. قال قبيصة: فقال زيد بن ثابت: يغفر الله لعائشة نحن أعلم برسول الله ﷺ من عائشة، إنما كان ذلك لأن أناسا من الأعراب أتوا رسول الله ﷺ بهجير، فقعدوا يسألونه ويفتيهم، حتى صلى الظهر ولم يصل ركعتين، ثم قعد يفتيهم حتى صلى العصر فانصرف إلى بيته، فذكر أنه لم يصل بعد الظهر شيئا، فصلاهما بعد العصر، يغفر الله لعائشة، نحن أعلم برسول الله ﷺ من عائشة، "نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة بعد العصر"(١٨٤).

وعن عروة بن الزبير، قال: قال زيد بن ثابت: يغفر الله لرافع بن خديج، أنا والله أعلم بالحديث منه، إنما أتى رجلان قد اقتتلا، فقال رسول الله ﷺ: "إن كان هذا شأنكم، فلا تكروا المزارع" قال: فسمع رافع قوله: "لا تكروا المزارع"(١٨٥).

وهاتان الروايتان من أوضح الدلائل على أن عدم الرواية لا يعني عدم الاهتمام، أو الجهل بسنة رسول الله ﷺ ويُضاف إلى ما سبق أن همة زيد بن ثابت رضي الله عنه كانت في كتاب الله تعالى.

٣-السنة النبوية منهج حياة:

وأقصد أن السنة ليست مجرد فلسفة نظرية للتسلية، إنها ممارسات عملية يعيشها المسلم تعبدا لله تعالى في كل شأن من شؤونه، في نومه ويقظته، في كدّه وراحته، في تعامله مع زوجه وأولاده وآبائه، في تعامله مع جيرانه، في تعامله مع

---

(١٨٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الهروي القاري، علي بن سلطان محمد ٢٦٣/١. ط١، بيروت: دار الفكر، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

(١٨٤) مسند أحمد بن حنبل ، مسند الأنصار ، حديث زيد بن ثابت ، حديث: ٢١٦١٢. وقال محققه الشيخ شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره.

(١٨٥) مسند أحمد بن حنبل، مسند الأنصار، حديث زيد بن ثابت، حديث رقم٢١٥٨٨. وقال محققه الشيخ شعيب الأرناؤوط: حديث حسن.

الناس، ومن قبل ومن بعد في علاقته مع ربه تعالى، وإجمالا في عقيدته وعباداته ومعاملاته وأخلاقه، ولعل هذا الحضور العملي التطبيقي للحديث النبوي والسنة بشكل عام في حياة الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم، كان أمنة من الخوف عليها من الضياع، فهي واقع معاش، وليست فلسفة منبتة الصلة عن حياة المسلمين.

٤-طبيعة المجتمع العربي:

قد سبق أيضا المعينات الفطرية لدى العرب، والتي مكنتهم من حفظ تراثهم الأدبي لعشرات السنين قبل الإسلام، ونشروه في الجزيرة كلها.

فهل يعجزون عن حفظ السنة، وقد أخرجهم الله تعالى بها مع القرآن من الظلمات إلى النور، وألف بين قلوبهم؟

قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأن نعبد الله لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام" قالت: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من عند الله"[(١٨٦)].

فألف الله بين قلوبهم، ووحد كلمتهم، وبدل خوفهم أمنا، ودانت لهم الأرض، هذا مع شدة دواعي الحفظ والعناية، إذ السنة مع القرآن عصمة الأمة وأمانها من الزيغ والضلال.

ونختم بما ورد عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض"[(١٨٧)].

فهل يبقى بعض هذا النص القاطع عن رسول الله ﷺ شكٌّ في اهتمام الصحابة بسنة النبي صلى الله عليه وسلم؟!

نعم يبقى الشك باقيا لدى الاستشراق المغرض، إذ إن الحقائق العلمية لا تغير من قناعات هذا الاستشراق شيئا.

لقد سبقت نقول كثيرة كلها تبين مكانة السنة في دين الله تعالى، واهتمام الصحابة الاهتمام البليغ بكل ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفه، ولا بأس هنا أن نضيف إلى ذلك بعض النصوص التي تدل على اهتمام الصحابة بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك:

---

(١٨٦) مسند أحمد، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند أهل البيت، حديث جعفر بن أبي طالب، حديث رقم ١٧٤٠. وقال محققه الشيخ شعيب الأرناؤوط: حديث حسن.

(١٨٧) المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب العلم، فأما حديث عبد الله بن نمير، حديث رقم. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ٢٩٣٧، و٣٢٣٢.

١–عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن يقول قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات"[(١٨٨)].

٢– عن عبد الله بن سخبرة قال: سمعت ابن مسعود يقول: علمني رسول الله ﷺ التشهد، كفي بين كفيه، كما يعلمني السورة من القرآن، واقتص التشهد بمثل ما اقتصوا"[(١٨٩)]، وورد مثل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما[(١٩٠)].

٣– عن جابر بن عبد الله السلمي ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها ، كما يعلمهم السورة من القرآن..."[(١٩١)].

إن ثمة حشدا هائلا من الأحاديث التي يتعبد المسلم ربه بها صباحا ومساء، إذا نام وإذا استيقظ، إذا دخل وإذا خرج، إذا ركب وإذا نزل، عند طعامه وشرابه، في صعوده وهبوطه، في خلوته بأهله، وفي كل أحواله.

فهل يستقيم لدى منصف أن يكون هؤلاء قد أهملوا سنة نبيهم؟!

---

(١٨٨) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة – حديث ٥٩٠.

(١٨٩) صحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، باب التشهد في الصلاة – حديث رقم ٤٠٢.

(١٩٠) صحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، باب التشهد في الصلاة – حديث رقم ٤٠٣.

(١٩١) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : قل هو القادر – حديث رقم٧٣٩٠.

المطلب الثاني: شبهة وضع الأسانيد للأحاديث:

يقول روبسون:

Gradually the necessity of producing authorities for traditions developed, and there is reason to believe that the practice was to some extent in force before the end of the first century; but it was late in the second century before it seems to have become essential to have a complete chain of authorities back to the source.(192)

ترجمة النص: وبالتدريج تطوَّرت الضرورةُ لإيجاد أسانيد للأحاديث، وهناك سبب للاعتقاد بأن طلب الإسناد بدأ قبل نهاية القرن الأول؛ لكن لم يصبح ملزماً الحصول على سلسلة كاملة من الأسانيد متصلة بقائليها إلا في أواخر القرن الثاني".

الأسانيد هي وسيلة نقل منطقية وطبيعية لكلام النبي ﷺ، فقد نقل أقوالَه وأفعاله ﷺ أصحابُه إلى التابعين ومن تبعهم، فالأسانيد هي حكاية أسماء الذين تشرفوا بنقل السنة عنه ﷺ إلى الذين جاؤوا من بعدهم.

ونحن نثبت ونقر أن من القُصّاص وأصحاب العصبيات المذهبية الفاسدة، واليهود والنصارى والمجوس الذين دخلوا الإسلام تقية اختلقوا الكذب ونسبوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فهذا أحد الزنادقة "لما أُخذ لتضرب عنقه قال: لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث، أُحَرِّم فيها الحلال وأحلل الحرام.وقد قتله محمد بن سليمان العباسي الأمير بالبصرة(١٩٣).

وذكر أبو الفضل السكسي ما يدل على دخول نصراني الإسلامَ تقية، وهو عبد الله بن سعيد بن كلاب، وكان نصرانيا من أهل البصرة فأسلم، فهجرته أخته، وكانت عالمة بدين النصرانية، فاحتال حتى دخل عليها، وقال لها: يا سيدتي، اسمعي مني كلمة واحدة، ثم افعلي ما بدا لك، فقالت: هات، فقال: اعلمي أني وجدت هذا الإسلام ينتشر، ويزداد كل يوم ظهورا، والنصرانية تضمحل آثارها، فوضعت فصولا، وعملت مسائل – ذكرها لها – أودعتها معنى النصرانية وأسسها في الإسلام، وشوشتُ عليهم أصولهم، فلما سمعتْ ذلك منه طابت نفسها"(١٩٤).

---

(١٩٢) The Encyclopaedia of Islam (new edition) vol.3 p.23.

(١٩٣) ميزان الاعتدال، الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ٦٤٤/٢، تحقيق: علي محمد البجاوي. ط١، بيروت: دار المعرفة، ١٣٨٢هـ، ١٩٦٣م.

(١٩٤) البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، أبو الفضل السكسكي، عباس بن منصور التريني الحنبلي ص٣٦، ٣٧ بتصرف. تحقيق: د.بسام علي سلامة العموش دط، الزرقاء: مكتبة المنار، دت.

فكان دور صيارفة الحديث أن ينخلوا [١٩٥] الأسانيد ويُخرجوا منها من كان مشبوها مغموصا عليه في دينه وعقيدته.

جاء عن ابن سيرين أنه قال: لَمْ يَكُونُوا يَسْأَلُونَ عَنِ الْإِسْنَادِ، فَلَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ قَالُوا: سَمُّوا لَنَا رِجَالَكُمْ، فَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ فَيُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ وَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ الْبِدَعِ فَلَا يُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ "[١٩٦].

وقول الإمام محمد بن سيرين يشير إلى:

١- أن معرفة الراوي لمن روى عنه وهكذا إلى رسول الله ﷺ كان طبيعيا، بيد أنهم ما كان يسألون عنه لانتشار العدالة، فلما ظهر الكذب، صاروا إلى تسمية الرجال، حتى يُعلم الحق، ويستبين الصادق والكاذب.

ولا ريب أن وجود المجروحين وأصحاب الأهواء في أسانيد الأحاديث يسقطها إثباتا ودلالة.

فعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: جَاءَ بُشَيْرٌ الْعَدَوِيُّ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَجَعَلَ يُحَدِّثُ وَيَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَعَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَا يَأْذَنُ لِحَدِيثِهِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ مَالِي لَا أَرَاكَ تَسْمَعُ لِحَدِيثِي أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا تَسْمَعُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّا كُنَّا مَرَّةً إِذَا سَمِعْنَا رَجُلًا يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْتَدَرَتْهُ أَبْصَارُنَا وَأَصْغَيْنَا إِلَيْهِ بِآذَانِنَا فَلَمَّا رَكِبَ النَّاسُ الصَّعْبَ وَالذَّلُولَ لَمْ نَأْخُذْ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَا نَعْرِفُ "[١٩٧].

ولا ريب أن ما دُوّن من الحديث زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فهو من صاحبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة، بلا إسناد، وذلك كصحيفة همام عن أبي هريرة، وصحيفة سليمان اليشكري عن جابر، وصحيفة نافع عن ابن عمر، وقد قام محمد بن شهاب الزهري بجمعها وتدوينها في كتاب، بلغ عدد أحاديثه نحو ألفي حديث، وذلك في آخر عهد الصحابة حوالي سنة ٧٠هـ [١٩٨].

وصارت هذه النسخ تباع في الأسواق، وقد اشترى معاوية بن يحي الصدفي كتاباً للزهري من السوق، فروى عن الزهري مع أنه ليس من تلاميذه، ولم يأذن له بالرواية عنه.[١٩٩]

فليس المقصود من الأسانيد هنا إثبات صحة هذه الصحف، وإنما المقصود بالأسانيد ما يثبت أنهم سمعوها من شيوخهم.

---

(١٩٥) النون والخاء واللام، كلمة تدل على انتقاء الشيء واختياره، وانتخلته: استقصيت حتى أخذت أفضله، معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤٠٧/٥.

(١٩٦) صحيح مسلم. المقدمة ١٥/١

(١٩٧) المرجع السابق ١٣/١

(١٩٨) تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٤٣١/٢٦ بتصرف. تحقيق: د. بشار معروف، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠.

(١٩٩) انظر: تهذيب الكمال للمزي هامش ٢٢٣/٢٨.

ولو جارينا المستشرقين في أنه قد تم اختراع الأحاديث، ومن ثم تركيب أحاديث بها، فلماذا وجدت مسائل فقهية لا دليل لها من الأحاديث، ولماذا جنح الفقهاء إلى الاحتجاج بالقياس والمصالح المرسلة والإجماع، ما دام لديهم الصلاحية في اخترع الأسانيد وتركيب المتون لها؟!

وما الطائل من وراء الجهود المضنية الضخمة التي بذلها العلماء في تصنيف كتب الجرح والتعديل وغيرها، إذا كانت المسألة لا تعدو أن تكون انتحالا وافتراءا؟

هل يُعقل أن يفتري شخص كذبا، ثم يعود فيحلل وينقد هذا الكذب؟!

لقد وضع علماء الحديث آليات الحفاظ على السنة، وعلى رأسها كتب الجرح والتعديل، والتي هي سجلات شاملة لكل مَن روى حديثا عن رسول الله ﷺ، أصله ونشأته، وشيوخه وتلاميذه، وهل عاصر من روى عنه، وهل لقيه أم لم يلقه؟ وهل ثبتت روايته عنه وإن عاصره؟ وغير ذلك من الضوابط التي تؤهله للرواية أو ترد ما جاء عنه.

والأحاديث لا تأتي في الهواء، ويلتقطها الناس، وإنما تُسند إلى أصحابها، ومن ثم تُقبل أو تُردّ، ومن ثمّ فإنه لا يمكن أن يروح حديث مكذوب على أهل هذا الفن وصيارفته.

إننا أمام سوء ظن مطلق يمارس في ضوئه الاستشراق المغرض التشكيك في كل شيء، والاتهام لكل شيء، فالقرآن ليس كلام الله، وإنما هو كلام محمد نسبه – بزعمهم إلى الله– والسنة ليست كلام محمد، وإنما هي كلام أصحابه نسبوه إلى محمد، وهلم جرا.

والذي يعنينا هنا هو إثبات الحق وإزالة الشبهات، والله من وراء كل القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الخاتمة:

تتبع الباحث معالجة المستشرق الإنجليزي "روبسون" لكلمة السنة، وعرض بعض الشبهات التي أثارها هذا المستشرق، وفي ضوء هذه الدراسة والمحاجة، خلص الباحث إلى النتائج التالية:

أهم النتائج:

٧- أن الاستشراق المغرض ينطلق من سوء الظن، والذي يسوغ له تجاهل الحقائق، وافتراء الكذب، وتعمد التشويه.

٨- هناك فرق بين كتابة الحديث في زمن النبوة الشريف، والذي ثبت عن كثير من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وبين التدوين الرسمي الشامل الذي بدأ في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

٩- القرآن الكريم وطبيعة نصوصه، وفهم الصحابة، كلها تؤكد أن السنة هي المصدر الثاني للتشريع، وأن حجيتها ليس أمرا طارئا دعت إليه ضرورة اجتماعية.

١٠- أسانيد الأحاديث وسيلة نقل طبيعية للنص الشريف، وليست اختلاقا.

١١- وظيفة السنة النبوية مع القرآن الكريم تفصيل مجمله، وتفسير مبهمه، وتقييد مطلقه، وتفسير مشكله، فضلا عن كونها تستقل بالتشريع، فهي وحي من الله.

١٢- أقرب القول في أحاديث النهي عن الكتاب والإذن فيها أن النهي كان في حق من خيف اختلاط الأمر عليهم، بدلالة الإذن لغيرهم في نفس الآن.

١٣- تنوع التأليف والتصنيف في علوم الحديث من الجهود العظيمة في خدمة السنة النبوية وتقريبها للشيوخ والمريدين.

أهم التوصيات:

إن البحوث التي تناقش شبهات المستشرقين كثيرة، ولكنها تظل حبيسة الأرفف، أو في متناول المتخصصين.

والباحث يوصي بنشر هذه البحوث، إما طباعة ونشرا بالطريقة التقليدية، أو عبر برامج وسائل الإعلام المختلفة، وكذلك عبر المواقع الإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي.

فلا شك أن هذه الشبهات تؤثر سلبا، وأقل صور تأثيرها السلبي أن تفقد الشاب المسلم ثقته في دينه، فيفرط في شرائعه وشعائره.

هذا وإن حالات الإلحاد التي تظهر هنا وهناك في العالم الإسلامي هي من طلع هذه الدراسات المغرضة.

أسأل الله تعالى أن يُبرم لهذه الأمة أمر رشد، يُعز فيه أهل الطاعة، ويُهدى فيه أهل المعصية، ويُؤمر فيه بالمعروف، ويُنهى فيه عن المنكر، هو سبحانه ولي ذلك والقادر عليه، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

أهم المصادر والمراجع

١- آراء المستشرق جوزيف شاخت حول حجية السنة النبوية من خلال كتابه أصول الشريعة المحمدية، الخليفة، محمد إبراهيم محمد نور، بحث مكمل لنيل درجة الماجستير- جامعة الإمام محمد بن سعود- كلية الدعوة بالمدينة المنورة- قسم الاستشراق- ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٢- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، تحقيق: علي محمد البجاوي. ط١، بيروت: دار الجيل، ١٤١٢هـ.

٣- البحر الزخار، البزار، أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، عادل سعد، صبري عبد الخالق الشافعي، ط١، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٩٨٨م: ٢٠٠٩م.

٤- البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، أبو الفضل السكسكي، عباس بن منصور التريني الحنبلي، تحقيق: د.بسام علي سلامة العموش دط، الزرقاء: مكتبة المنار، دت.

٥- تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: محمد زهري النجار. دط، بيروت: دار الجيل، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٢م.

٦- تقييد العلم، البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب أبو بكر، تحقيق: يوسف العش. ط٢، دار إحياء السنة النبوية، ١٩٧٤م.

٧- تقييد العلم، الخطيب البغدادي، الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت، دط، بيروت: إحياء السنة النبوية، دت.

٨- تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ٤٣١/٢٦ بتصرف. تحقيق: د. بشار معروف، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠.

٩- توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، الأمير الصنعاني، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

١٠- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، البخاري، محمد بن إسماعيل، تحقيق: محمد زهير الناصر، ط١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.

١١- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله النمري القرطبي ٣٦٨/٢، ط١، القاهرة: مؤسسة الريان، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

١٢- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق: محمود الطحان. دط، الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٣هـ.

١٣- الرسالة، الشافعي، محمد بن إدريس، تحقيق: رفعت فوزي عبد المطلب. ط١، المنصورة: دار الوفاء، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

١٤- السنة قبل التدوين، محمد عجاج الخطيب، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

١٥- سنن أبي داود، أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد كامل قره بللي، ط١، بيروت: دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.

١٦- سنن الترمذي (الجامع الكبير)، الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، تحقيق: بشار عواد معروف، دط، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨م.

١٧- السنن الكبرى للنسائي، تحقيق: حسن شلبي. ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

١٨- شرح السنة، البغوي، الحسين بن مسعود. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد زهير الشاويش. ط٢، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

١٩- شرح علل الترمذي، ابن رجب الحنبلي، تحقيق د.همام عبد الرحيم سعيد. ط٢، الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

٢٠- صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط. ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

٢١- صحيح ابن خزيمة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، دط، بيروت: المكتب الإسلامي، دت. وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ٢٥٤٥.

٢٢- الطبقات الكبرى ، ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء. تحقيق: إحسان عباس. ط١، بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م.

٢٣- العقيدة والشريعة في الإسلام تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الدين الإسلامي، جولد زيهر، إجناس، ترجمة محمد يوسف موسى وزميليه، ط٢، دار الكتب الحديثة- القاهرة- مصر- دت.

٢٤- فتح الباري، ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، تحقيق العلماء: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، عبد العزيز بن باز. دط، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.

٢٥- الفقيه والمتفقه، البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب، تحقيق: عادل بن يوسف الغرازي. ط٢، الرياض: دار ابن الجوزي، ١٤٢١هـ.

٢٦- قوت المغتذي على جامع الترمذي ٦٦٥/٢، السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. رسالة دكتوراه: جامعة أمر القرى، مكة المكرمة، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، الباحث: ناصر الغريبي، ١٤٢٤هـ.

٢٧- المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، الرامهرمزي، الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد أبو محمد الفارسي، تحقيق: د.محمد عجاج الخطيب. ط٣، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٤هـ.

٢٨- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الهروي القاري، علي بن سلطان محمد، ط١، بيروت: دار الفكر، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

٢٩- المستدرك على الصحيحين، الحاكم، محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

٣٠- المستشرقون، العقيقي، نجيب، ط٥- دار المعارف، القاهرة، مصر- ٢٠٠٦م.

٣١- مسند أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، بإشراف د.عبد الله بن عبد المحسن التركي. ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

٣٢- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دط، بيروت: دار إحياء التراث العربي، دت.

٣٣- منهج النقد في علوم الحديث، نور الدين محمد عتر الحلبي، ط٣، دمشق: دار الفكر، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

٣٤- ميزان الاعتدال، الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، تحقيق: علي محمد البجاوي. ط١، بيروت: دار المعرفة، ١٣٨٢هـ، ١٩٦٣م.

٣٥- النهاية في غريب الحديث والأثر، الجزري، المبارك بن محمد، تحقيق: طاهر الزاوي، محمود الطناحي. دط، بيروت: المكتبة العلمية، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.

فهرس الموضوعات